مجموعة قصصية

كسرُ الرجالِ



أمير سالم

مجموعة قصصية

كسر الرجال

أمير سالم

اسم الكتاب :	كسر الرجال (مجموعة قصصية)

اسم المؤلف :	أمير سالم

تصميم الغلاف والإخراج الفني : أ. سالم

الجمع الاليكترونى:	محمد ويفى

التنفيذ الفنى :	سامح رمزى

٧ شارع الحجاز - روكسى - مصر الجديدة
تليفون : ٤٥٢٠٩٧٧ - فاكس : ٢٥٩٦٦٢٢
E-mail: LRRC@brainy1.ie-eg.com

إلى صديق العمر..

رضوان الكاشف

قم. من رقدتك. مبتسماً.

فأنت. حاضر.

أعمالك. محفوظة . في خزائن الوطن.

وملء قلوبنا وعقولنا.

أمير



يعود بنا أمير سالم في مجموعته القصصية الأولى «كسر الرجال» إلى زمن الحكي الفني كوسيلة أساسية في بناء قصصه.. وقد بدا في العقدين الأخيرين وكأن تقنية الحكي قد اختفت خلف الضباب الكثيف القادم من الثقافة الغربية باسم الحداثة وما بعدها، تارة، أو باسم الحساسية الجديدة التي تنازع شرف التبشير بها أكثر من ناقد، تارة ، أو الكتابة عبر النوعية، تارة أخرى! وكلها مصطلحات منتزعة من سياقها في الأدب الأوروبي المعاصر، دفعت كثيراً من الكتاب لإضاعة جهدهم الإبداعي في

التجارب الشكلية والتمرينات اللغوية، ونأت بانتاجهم عن اكتشاف تفاصيل الواقع الحي، بدمه ولحمه، وبتعقيداته وتشابكاته، وبعبثه الجنوني وفكاهته السوداء، وبشخوصه الذين نظن أننا نعرفهم فإذا برؤية القاص - التي لم يحجبها الضباب - تكشف لنا ما لا نعرفه فيهم من قوة أو ضعف، من خِسة ونُبل، من عُنف ورِقة، أو من توليفة تجمع بين الكثير من المتضادات، لنخرج من قراءتنا وقد صححنا جزءاً من إنحرافنا عن جوهرنا وصرنا أقرب إلى إنسانيتنا!

لم يبدع الوجدان الفني الجماعي «الحكي» عبثاً، أو لمجرد التسلية والمتعة رغم ضرورتهما، ولكنه أبدع الحكي ليكون «غرفته السرّية» التي يودع فيها خبراته وتجاربه وأساطيره وطقوسه ومعتقداته وسحره وتعاويذه وعلمه وأحلام يقظته.. وعندما انقسم المجتمع إلى طبقات سائدة وطبقات مسودة، ثم طردت ثقافة الطبقات المسودة خارج ديوان الثقافة الرسمية المقدسة، احتفت هذه الطبقات الشعبية بتراث الحكي الحي

وأودعته ذاكرتها الجماعية لتبدع من خلاله تاريخها غير المكتوب وعلومها غير المعترف رسمياً بها . . إلى أن جاء عصر الطباعة الذي أحدث ثورة غير مسبوقة في تاريخ المعرفة والثقافة الإنسانية، وكان من الآثار البارزة لتلك الثورة فرض نوع من «ديمقراطية المعرفة» فأصبح من حق من يستطيعون القراءة من أبناء الطبقات الشعبية - ماداموا يملكون المال، وهو قليل القليل إذا ما قورن بما يتكلفه النسخ اليدوي - أصبح من حقهم أن يطبعوا السير الشعبية، والحكايات، وقصص ألف وليلة، والنوادر والأمثال، والأغاني المتداولة، مثلما يستطيع سدنة الثقافة الرسمية طبع كتبهم . . وعرفت مصر فيما يسمى «بعصر النهضة» ما تسميه الدكتورة نيللي حنا بـ «التحديث من أسفل» مثلما عرفت «التحديث من أعلى» ولكن التحديث من أسفل لم يؤرخ له ولم يدرس وأُهمل كما أُهمل أصحابه (د. نيللي حنا - اللغة العامية وأنماط التحديث - قضايا فكرية ١٩٩٩).

* * * *

من الأقوال المشهورة أن «الرواية ملحمة البرجوازية» وهذا كلام يصدق على البرجوازية الأوروبية التي رفعت خلال مرحلة تطورها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي شعار التعبير عن مصالح الشعب كله، والاندماج في الحضارة الإنسانية، وتحقيق الديمقراطية بهدف القضاء على النظام الاقطاعي.. ولذلك أتاحت النمو للإتجاهات التي وجدت في الثقافة الشعبية ما يساعدها على تفسير الواقع الاجتماعي، وتأكيد الملامح الفارقة للقوميات الأوربية، ولكن ذلك لا يصدق على البرجوازية المصرية (وتعبير الطبقة المتوسطة أكثر دقة في وصفها من تعبير البرجوازية) التي خرجت طلائعها الأولى من عباءات كبار ملاك الأراضي «وجهاء البلاد وأعيانها» كما أطلقوا على أنفسهم، كان أقصى طموحهم السياسي أن يشاركوا المحتل البريطاني وسكان قصر عابدين في شيء من السلطة، وكانوا يجمعون في تكوينهم الفكري بين الثقافة العلمانية القادمة من الغرب والتقاليد المحافظة للعائلات الريفية العريقة. لذلك تعاملت مع فني الرواية والقصة القصيرة

مترجمة أو مؤلفة باستعلاء وتجاهل جعل أبناءها المثقفين لايجرؤون على إعلان ارتكابهم لإثم تأليف الروايات والقصص، وما فعله الدكتور محمد حسين هيكل بالطبعة الأولى من روايته «زينب» مثال واضح الدلالة، فلم يجرؤ أن يضع اسمه عليها، وكتب أنها تأليف «مصري فلاح».. وهو الذي عرف خلال إقامته للدراسة في باريس ما يلقاه الإبداع القصصي من اهتمام واحترام! وكما استعلى المثقفون من أبناء الفئات العليا للطبقة المتوسطة على القصة باستثناء التيموريين محمد ومحمود فقد استغنت عنهم هي أيضاً «وهل لنا أن نقول إنها (القصة) تملصت بصعوبة من قبضة أبناء القصور ليتولاها أبناء الشعب للتعبير الصادق عن هذا الشعب» (يحيى حقي - فجر القصة المصرية) وأبناء الشعب الذين يعنيهم كاتبنا الكبير الراحل هم الجماعة الصغيرة التي عرفت في التاريخ الأدبي الحديث بـ «المدرسة الحديثة» الذين كان همهم الفكري والإبداعي خلق أدب مصري صميم، ومن أقلامهم خرجت الروايات والقصص الناضجة فنياً، وهم جميعاً من أبناء

موظفين أو تجار، وكانوا هم أنفسهم أطباء ومهندسين ومحامين وصحفيين من الذين تلقوا تعليمهم في المدارس المدنية المصرية، والذين يطلق عليهم عادة «البرجوازية الصغيرة»: محمود طاهر لاشين - حسين فوزي - خيري سعيد - إبراهيم المصري وآخرين.

* * * *

عفواً .. فقد استطردت في الحديث عن قضايا أرى أن لها علاقة وثيقة بالحكي وبمجموعة أمير سالم القصصية الأولى «كسر الرجال» التي عادت بنا إلى تقنية الحكي المفتقدة.. وهل كان في وسع من عاش تجارب ووقائع وأحداث وأحلام مثل التي عاشها أمير سالم أن يلجأ في قصصه إلى التهويم والتجريب العدمي الناتجين عن فقر الروح والعزلة النرجسية والتجارب الورقية؟!

والذين يعرفون أمير سالم عبر الدوائر المشتركة للنشاط السياسي والاجتماعي، يعرفون أنه: محام وباحث قانوني وسياسي وأحد البارزين في حركة حقوق الإنسان. وكثير من أبناء جيله يعرفون انخراطه في الحركة الطلابية الثورية في السبعينيات

وفي النشاط السياسي اليساري - لكن دائرة ضيقة من أصدقائه الحميمين هم الذين يعرفون ولعه بالقصة القصيرة، والرغبة القديمة المتجددة - التي يؤجلها الخجل - في نشر بعض قصصه في كتاب - إنه كاتب غير محترف وهو موقف دفعه إلى استهداف الصدق الفني مع التجارب والوقائع والأحداث التي شكلت المادة الخام لقصصه، ولا يعنى هذا أنه يقدم للقارىء تسجيلاً فوتوغرافياً دقيقاً لتلك التجارب والأحداث. فتقنية الحكي تنفر من التسجيلية والمباشرة، بحثاً عن التشويق والنفاذ إلى ما وراء الظاهر. لذلك ستجد هذه التقنية هنا تستوعب داخلها في تناغم لا يطمس سماتها وتقنيات: المفارقة والتضاد والرمز والفنتازيا والأمثولة وتكرار التيمة في أكثر من قصة ومع أكثر من شخصية لتستكمل تنوعاتها التي تشعر القارئ بترابط هذه التنوعات.

وأبرز التيمات المتكررة في قصص هذه المجموعة هي «تيمة العنف» سواء كان عنفاً عشوائياً كالذي مارسه سكان تل العقارب وحارة شق الثعبان ضد بائع الخبز الذي رفع ثمن الرغيف، ثم

انتقلوا بعنفهم إلى عساكر الشرطة ومخبريها وضباطها وكانت النتيجة خسارة للطرفين. أو العنف الذي يكسر الروح النبيلة ليستمتع استمتاعاً مرضياً بإهانتها مثلما حدث في قصة «كسر الروح» التي أخذت المجموعة اسمها، أو ما يمكن تسميته بـ «العنف الهزلي» الذي يثير البسمة أكثر ما يثير الغضب كما في قصة «بطل الجمهورية». أو «العنف الأعمى» الناتج عن التدين عندما يكون مرضاً! كما في قصة «زفت وعنبر» أو عنف الدولة البوليسية الذي يمد ظله الأسود في خلفية معظم القصص.

في قصة «عباس والكلاب» يجد بطل القصة الطالب بالمعهد التجاري الذي لا تتعدى اهتماماته، بعد دراسته، الحصول على بعض النقود القليلة التي تتطوع بها أمه بعد أن يفشل في الحصول عليها من أبيه، يجد نفسه بعد أن توقف الأتوبيس الذي يركبه أمام الجامعة رافضاً الاستمرار في السير خوفاً من اعتداء الطلاب الداخلين مع رجال الأمن في صدام فترة اعتصامهم في الجامعة، يجد نفسه بحكم الدفع الذاتي وقد أصبح في قلب الصدام الذي لا

يعـرف عنـه شـيئـاً ، يقـذف بالأحـجـار ويقع على الأرض وتدوسـه الأقـدام لتنتـهي الرحلة العـبثـيـة به في أروقـة مـبـاحـث أمن الدولة متهـماً بعضوية الحزب الشيوعي السري ، يجرى معه تحقيقاً عبثياً حول أسـماء وأحداث لا يعـرف عنها شيئـاً ، ويستخـدم رجال الأمن معه ـ كـما هو متبع ـ أساليبهم الديمقـراطية في الاستنطاق ليعترف بما يريدونه أن يعتـرف به . . ويعود إلى بيتـه بعد ستة شـهور ليجد أمـه قـد كفت عن إحداث قـرقعة الـصحون في المطبخ ، ومن يومـهـا كف عن طلب نقود من أبيه ، كما كف عن زيارة صديقه !

وفي قصة «طابور عيش» التي تدور أحداثها في تلك الحارة السد العجيبـة «حارة شق التعبان بتل العقارب» والتي تسير فيـها الحياة بثبـات روتيني وكـأنهـا خـارج قـوانين التـاريخ . هذه الحـارة تـنقلب حياتها عندما يرتفع ثمن رغيف العيش إلى الضعف . . تقود زوجة عم الراوي مظاهرة تتجه في البداية إلى الفران ، ثم عندما تكتشف أن رفع ثمن الرغيف تم بأمر الحكومة تتجه المظاهرة إلى الحكومة ممثلة في العساكر والمخبرين ثـم الضباط . ويشتد الصدام بين الأهالي

وبين الحكومة يمطرون ممثليها بالحجارة ويمطر العساكر الأهالي بالرصاص، ويهجم سكان الحارات على مبنى البوليس يهزونه حتى يرتج مرتعداً من الخوف إلى أن يتهدم! وتأتي سيارات أمن أخرى للدفاع عن مبنى القسم، وتنتهي المعركة بانقسام المشاركين فيها من الأهالى إلى فريقين «فريق ذهب مع العساكر والضباط في السيارات الكبيرة المغلقة.. وفريق تكونت منه بحيرة حمراء حول مبنى القسم وفوق أنقاضه»، وسيجد قارئ القصة أن الكاتب قد انتقل في نهايتها من السرد الواقعي إلى الفانتازيا التي حولت مبنى قسم البوليس إلى «ماكيت من الكرتون» يهتز ويرتج ويسقط ليتحول إلى أنقاض تحيطه بحيرة حمراء هي جزء من دم أبناء القاع وساكني الحارات الذين تمردوا لتكتسب القصة كلها بعداً رمزياً تستعيد به الذاكرة الشعبية أحداثاً مماثلة قد تكون انتفاضة الخبز في يناير ١٩٧٧. وفي قصة «الموت الرطب» يستمر الكاتب في استخدامه للرمز كأداة للحكي، لكنه رمز محمّل بكثافة شعرية

تجسدها مفردات المكان وألوانه وشخصياته، فألوان الأبيض والأسود والأبواب المعدنية الزجاجية، والمرأة التي ترتدي ملابس كهنة آمون. وعلاقة الطفل بجدته المسجاة جثتها استعداداً لدفنها، تلك الجدة التي تمثل زمناً جميلاً مضى بذكرياته النبيلة، وهي ترقد ملفوفة في الغلالات الرقيقة وكأنها في انتظار طقوس التحنيط الفرعونية، تحيطها جوقة معبد آمون ترتل صلواتها. إنه موت لا يشبه الموت العادي فهو أشبه بزفة لواحدة من عرائس السماء.. لقد عرفت الجدة كيف تعيش رغم تقلبات الحياة العنيفة ـ عرفت كيف تغرس في حياتها أشجار تهبُ الظل والدفء.. ويصبح العنف هنا ـ والذي لم يذكره الكاتب ـ عنفاً شعرياً ـ عنف الفقد والغياب والرحيل إلى عالم الصمت.

في قصة «البلدوزر» يستخدم الكاتب «الأمثولة» ليصور الكاتب الصراع بين الإنسان والقوة الغاشمة.. الإنسان بدأبه على البناء وتجميل الحياة.. والبلدوزر بدأبه على الهدم وتدمير الحياة. ويبدو العنف في هذه القصة وكأنه عنف ميتافيزيقي لا قِبَل للعاديين من

الناس بتحديه ومقاومته إلا بالهرب من مواجهته.. ولكن حسين المصري الشخصية الوحيدة في القصة التي لها اسم، وهو اسم يحيل ببساطة إلى ما هو أكبر من فرد، يرفض حسين الاستسلام لقهر البلدوزر الذي يهدم ما يبنيه ويودع فيه أشواق روحه وحبه للحياة - يقاوم حسين للمرة الثالثة حتى لا يكف القمر عن الابتسام، وتفر الشمس من الظهور، وينبطح الناس على بطونهم تحت الأسرة في بيوتهم القزمة.. وأمام إصرار حسين في المضي في البناء يشاركه الجميع في البناء، ولا يتمكن البلدوزر من الهدم لأن ليل الهدم لا يأتي ليتحول في النهاية إلى لعبة لأطفال المدينة..

يرسم الكاتب في قصة «كسر الرجال» ملامح لوجه مصري أصيل ينتمي لعالم الرجولة والأصالة كما تفهمها الثقافة الشعبية وتحافظ عليها وتدافع عنها.. إنه وجه «قبيصي الكبير» القادم من إحدى قرى سوهاج إلى الاسكندرية سعياً وراء الرزق، كما فعل آلاف غيره من أهل الصعيد الذين لا يملكون غير قوتهم البدنية وكرامتهم الإنسانية، والذي يملك أهم مقهى أمام سينما المنتزه في

شارع خالد بن الوليد يديره هو وأبناؤه، وقد فرضوا مهابتهم واحترامهم على المنطقة باحترامهم لأنفسهم ولغيرهم، ولحرصهم كما علمهم القبيصي الكبير بأن يزنوا كلماتهم بميزان، كان القبيصي وأولاده ينتمون إلى عالم الفتوة الشعبية بتقاليدها النبيلة التي تجعل ممثلها وحامل رسالتها «يقسّم جسمه في جسوم كثيرة» وهو عالم انتهى، وحل محله عالم الفاسدين المفسدين من أشباه الرجال، لم يخضع القبيصي الكبير ولا أولاده لمحاولات ضابط المباحث ومأمور القسم لكسر شوكتهم وضمهم إلى القطيع القابل للتطويع، فهم كأحجار الصعيد لا ينكسرون ولا ينحنون ما داموا يسيرون في حياتهم حسب الأصول، ولما حار مسئولو الأمن الكبار في المنطقة في أمرهم لفقوا لهم تهمة تعاطي واتجار في المخدرات، ثم أضيف للتهمة بعد استقبالهم - استقبالاً بوليسياً لائقاً - في القسم تهمة مقاومة السلطات.. وتحت بند عدم معرفة محل إقامتهم وإذا ما كانوا مطلوبين في قضايا أخرى.. وبدأوا بترحيلهم بما يسمى «الكعب الداير» طافوا بهم مراكز الشرطة

ومـديريات الأمن من الاسكندرية حتى سوهاج والعـودة إلى القاهرة، حيث سجن الترحيلة حيث التقى بهم الراوي المحجوز على ذمة قضية سياسية واستمع هو ومن معه من المحجوزين إلى قصة القبيصي الكبير وأبنائه لتنتقل إليهم مشاعر الألم والغضب ولتنطبع ملامح وجه القبيصي الكبير التي قدت من الصوان على وجوه الجميع..

ويتقابل في قصة «زفت وعنبر» عنف الدولة البوليسية مع العنف الأعمى المتدثر بالتدين المرضي.. فالراوي الذي تحول من محام يدافع عن عمال مصانع الحديد والصلب الذين أضربوا عن العمل بسبب ظروف العمل غير الإنسانية، إلى معتقل مطلوب التحقيق معه، لأنه لم يتمالك نفسه وقد رأى ما حدث لمصطفى قائد العمال المضربين الذي اكتسب جسمه وملامح وجهه بعض صفات الحديد الصلب الذي يعمل فيه، مع احتفاظ عينيه بنظرة طفولية حزينة، حوّل التعذيب الوحشي مصطفى إلى كائن لا يستطيع الوقوف على قدميه أو الرد على أسئلة المحققين، ولم يتحمل المحامي فانطلق يلعن النظام والضباط والتعذيب والمحققين.

وفي سيارة الترحيل التي أخذت المحامي للتحقيق معه في النيابة ينضم إليه في الطريق اثنان من سجن طره مطلوبين للتحقيق أيضاً يبدو من مظهرهما أنهما من الجماعات الإسلامية، ظلا في حبس انفرادي منذ قبض عليهما في نفس القضية ولم يتقابلا إلا في سيارة الترحيل، وعندما يعلمان أنه شريكهما في السيارة محامٍ يستفتيانه في إمكانية العودة عن اعترافهما بجريمة قتل بناءً على فتوى من أمير صغير في الجماعة، فأصغر الرجلين كان يحب بنتاً في منطقتهم على البعد، وقرر بينه وبين نفسه أنها خطيبته ويجب أن يحميها من غواية الشيطان، ولكن البنت لم تلتفت إليه ولم تعلم بعواطفه، واستهواها شاب آخر كان يأخذها بسيارته الصغيرة ليجلسا على كورنيش النيل، ورأى الشاب الصغير وصديقه ذو اللحية الكثة أن هذا اعتداء من كافر على حرمة مسلم، وجاءهما ثالث من المطرية كأمير عليهما يملك حق الفتوى، وأفتى باحلال دم المعتدي، واستدرجوه إلى المقابر، وقتله الثلاثة بوحشية.. اعترف الصغير بكل التفاصيل في بداية

التحقيقات وأنكر الثاني متهماً الأمير الذي أصدر الفتوى والذي صمت في البداية لينكر كل علاقة له بالتهمة.. ويسأل الرجلان المحامي بنفس البساطة التي حكيا بها قصة القتل، عن إمكانية إنكار اعترافاتهما السابقة!

وتخرجك قصة «بطل الجمهورية» من هذا العنف الجنوني إلى نوع من العنف المرح الذي لا تملك إلا أن تحب صاحبه وتتعاطف معه ومع قدراته الذكية في الاحتيال على الحياة، ويساعده في الاحتيال تكوينه الجسدي الذي يجعل منه كتلة من العضلات تتدحرج على الطريق.. صعلوك ساخر بذيء اللسان يعرف ـ كما يقول أولاد البلد ـ كيف يأكل بعقول البكوات وأولاد الذوات حلاوة، انضم إلى نادي السكة الحديد التي يعمل موظفاً بها بحثاً عن أي امتيازات.. وكان في معاركه وخناقاته في حي المنيل يقلد محمد علي كلاي، ويصرح على المقهى أنه يستعد لبطولة الجمهورية.. وعندما اتسعت علاقاته بضباط الشرطة والجيش وبكوات حي الروضة، التقى بمدير الأمن وأصبح عضواً في فريق

نادي الشرطة الرياضي. ومن خلال الأحداث تتأكد مكانته في الحي وتتسع شهرته كرجل ذي نفوذ وكمرشح لبطولة الجمهورية في الملاكمة.. ويضيف خيال الناس المزيد إلى صورة حسونة وعلاقته بالوزراء واطمئنان عبد الناصر بنفسه على تدريباته لعرش الملاكمة، ويصدق الناس ما يخلقونه من شائعات، وتهتم به أجهزة المخابرات والإعلام، ويعلن في أول حديث صحفي أنه يقوم بتدريبات سرية وأنه مرشح للعب في رومانيا، وتكبر الأكذوبة وتنمو في عالم تحكمه الأجهزة السرية، ويأتي يوم المباراة بين حسونة وبطل الجمهورية في الملاكمة ويحتشد أبناء الحي لتشجيع حسونة الذي ينهزم في الدقائق الخمسة الأولى لأنه لا يعرف شيئاً عن قواعد اللعبة وتحت تأثير صرخات تشجيع أبناء الحي واهتزاز أعصاب بطل الجمهورية بفعل ما سمعه من شائعات وما رآه من اهتمام كبار المسئولين بحسونة، يلجأ حسونة إلى ضرباته العشوائية التي لا يعرف البطل كيف يتقيها فيسقط بالضربة القاضية الفنية!

* * * *

لا يعنى التركيز على «تيمة» العنف سوى أنها التيمة الأكثر بروزاً فى معظم قصص مجموعة «كسر الرجال» وإن كان ذلك لا يعنى طمسها، أو يلغى تكاملها مع التيمات والتفاصيل والشخصيات الذين نلتقيهم فى القصص. وبداية سنلاحظ أن أمير سالم لا ينتزع اللحظة القصصية من سياقها الحى، لكى يثبتها معزولة على الورق، ولكنه يعطى اللقطة القصصية حريتها الخاصة فى إطار السياق الواقعى، الأمر الذى يضاعف من قدرتها على إثارة مخيلة القارىء، ويجعلها تقرأه وهو يقرأها - اذا صح التعبير.

كما أن الكاتب لا يتوقف طويلا ليرسم ملامح وسمات شخصياته، بل يكتفى باللمسات السريعة ليبتعد بها عن الجاهزية والصنع المسبق، ثم يتركها تمضى من خلال الأحداث والوقائع وكأنها تطور نفسها بنفسها.. وسيكتشف القارىء أن الكاتب مولع بشخصيات قصصه سواء كانوا من أهل قاع المدينة مثل شخصيات حارة «شق الثعبان» التى كان بعض الناس يسمونها «حارة المقاطيع» أو الذين يجسدون قيماً قديمة أصيلة فات زمانها،

كقيمة «الفتوة» بمعناها الشعبى كما فى قصة «كسر الرجال» أو الرجال الذين لا يعرفون اليأس لبلوغ هدفهم المشروع والضرورى لمواجهة القبح والهدم، كما فى القصة الأمثولة «البلدوزر» وأعتقد أن الكاتب قد وفق فى إختيار شكل الامثولة لهذه القصة ليتخطى ما هو كائن إلى ما ينبغى أن يكون، وليوصل المعنى للقارئ دون أن يشغله بالتفاصيل الواقعية والوقائع المنطقية..

وفى قصة «الموت الرطب» التى يفرض عليها الشعر بعض أطيافه ورؤاه، لتليق بحياة نبيلة أسهمت فى تجميل الحياة قدر طاقتها. ولعل أمثال تلك القصة هى ما تحذر منه الكاتبة التشيلية «إيزبيل الليندى» عندما تنصح الكتاب الشباب، بألا يبدأوا حياتهم الأدبية بكتابة القصة القصيرة لصعوبتها ولتماسها مع القصيدة، وعليهم - تكمل الكاتبة : أن يبدأوا بكتابة الرواية لأنها الأسهل. وهو رأى عكس الرأى الكلاسيكى الذى استقر عليه كثير من النقاد والدارسين من أن الرواية نتاج للنضج العاطفى والعقلى والفنى الذى يأتى متأخراً. عموماً فليس هناك

قواعد صارمة وثابتة في الابداع الفني، كما أن الكاتب في قصة «موت رطب» قد حافظ على التوازن بين الروح الشعرى والسرد القصصى وبين الرمز والواقع. ولعبت الذاكرة دوراً أساسيًا في تنظيم هذا كله في علاقات فنية جديدة. فعندما يغلق الطبيب في بيت الموتى الباب المعدنى بقوة تصفع هذه القوة ذاكرة الراوى وتستيقظ الذاكرة لتعمل في اتجاهين : حياة الجدّة التى أصبحت جثة مهيأة للدفن، والرمز الذى تحيل اليه المرأة المتشحة بالسواد الشبيهة بكهنة معبد آمون، وما يعنيه الموت في عقائد المصريين القدماء من ذهاب لعالم آخر، هو عالم الخلود.. وذاكرة الراوى هنا ليست مجرد سجل للوقائع والاحداث ولكنها قوة تشكيلية تحتفظ بماله معنى ودلالة. فالتداعى هنا ليس مجانيًا، ولكنه تداعى من أجل استعادة مؤشرات وتفاصيل منحازة لقيم التحضر والنبل ومجالدة تقلبات الحياة. كما أنها استعادة يستمد منها الراوى القدرة على مواصلة الطريق.

****

والعلاقة بين الكاتب وشخصيات قصصه - ما عدا ممثلي السلطة - علاقة حميمة، وإن كان لايقع في الخطيئة اليسارية القديمة التي ترى في المهمشين والمحتالين من أجل الرزق «أبطالاً نموذجيين» كما أنه يتحكم في تعاطفه مع شخصياته حتى لا يحول بينه وبين أن يراهم - كما هم عليه - منقبًا فيما هم عليه عن إنسانيتهم وخفة روحهم التي لا تطمسها خطاياهم الصغيرة.. فحسونة الشخصية الرئيسية في قصة «بطل الجمهورية» نموذج للمحتالين على الحياة وعلى القانون الاجتماعي الذي فرض على صغار الناس أمثاله دون أن يستشاروا فيه! وهو يدرك بذكائه الفطرى وخبرته بالبشر أن بعض الحاكمين ليسوا أقل غباء أو هشاشة إنسانية من كثير من المحكومين. الأمر الذي يجعله يبدأ في صنع أسطورته الخاصة. يهتم بنظافة مظهره.. يستثمر بنيته القوية في إعلان نفسه حاميًا لأهل المنطقة من أي معتدى أجنبي.. لا يمنعه النفاق الاجتماعي من استعمال الألفاظ العارية والاشارات الجنسية على طريقة أولاد البلد.. وينجح بطرقه الخاصة في أن

يكون عضواً في الفريق الأول لنادى الشرطة الرياضى، رغم أنه موظف بالسكك الحديدية ! ! يقف إلى جانب تلميذ صغير وولى أمره ضد المُدرسة التى أرادت أن تفرض عليهما درسًا خصوصيًا لا يستطيع الأب دفع مقابله، ويتفرغ حسونة لرد الظلم وكأن التلميذ إبنه.. وينتصر فى معركته التى استعان فيها بمأمور القسم ومدير التعليم ويؤكد هذا الانتصار من مكانته أمام أهل الحى.. وتكبر الاسطورة لتضم أسماء أعلى مستويات السلطة، ولتنتهى وقد فعلت فعلها بأن أصبح حسونة بطل الجمهورية فعلا !..

ويكشف لنا حسونة - عبر مسيرته - وجهًا آخر للدولة البوليسية يجعلنا نسخر من ذكائه المشوّه، ومن معرفتها القائمة على الظن والشائعات.. وهو وجه يقابله الوجه التقليدى الذى يمثله مأمور القسم وضابط المباحث فى ميامى الاسكندرية الذين لا يطيقون وجود رجال حقيقيين رغم وضعهم الذى يجعلهم مستورين بالكاد فيوظفون قوانينهم غير الانسانية فى «كسر الرجال» الذين يذكرهم مجرد وجودهم بحياتهم التافهة.

كما أن هذا الوجه مقابل كاريكاتورى لوجه السلطة الوحشى عندما يرتد بعض ممثليها الأمنين إلى «مرحلة الوحش فى الإنسان» والتى لم تقض على أثارها السبعة آلاف عام من عمر الحضارة المعروف، كما فى قصة «زفت وعنبر» التى تحاصر القارئ بوحشيتها الحكومية ووحشيتها الشعبية معاً..

وبعد.. فلا أريد أن أمضى فى التقديم أبعد من ذلك، حتى لا أشفع كل قصة من قصص المجموعة بـ«مذكرة نقدية» أو أن أقف بين القصص وبين القارىء، فارضاً عليه قراءتى الخاصة لها، لقد أردت بهذا التقديم الاحتفاء بقصص أسهمت فى تذكيرنا بزمن الحكى الجميل. وأرجو أن أكون قد وفقت.

سيد خميس

القاهرة- سبتمبر- ٢٠٠٢



عباس والكلاب ..



كعادته أبى فى تلك الظروف وفى الظروف المشابهة. أخذ يسب كل أجدادى، ويرغى ويزبد، ويأتى بالقديم والجديد فى علاقتنا ببعضنا، ويدعى على زوراً ككل مرة. أننى سبب كل أمراضه وشقائه. ولولا أنه مثل هذه المسرحية أمامى عشرات المرات من قبل، وأن بى بقية من عقل، لتصورت أننى الشيطان نفسه.

خلاصة القول أنه رفض إعطائى العشرة قروش. لأتمكن من الذهاب إلى أحد أصدقائى. والأمر لم يكن يتعدى ثمن تذكرتى ذهاب وعودة. وإن اقتضى الأمر، زجاجتى مشروب مثلج أدفعهم من نقودى. منعاً للحرج، وحتى أبدو ولو لمرة واحدة غير مفلّس.

وكعادتة أمى أيضاً، فى تلك اللحظات الإنفجارية، لا تنطق ولا تتكلم، وإنما تنسحب ناحية المطبخ، وتأخذ الصحون فى القرقعة.

كأنها تؤدى مهامها اليومية العادية. فأذهب إليها. على وجهى علامات الغضب. وقبل أن أفتح فمى بالشكوى، تكون قد أعطتنى ما فيه النصيب. فى هذه المرة أعطتنى العشرة قروش كاملة. ملحق بها نصائحها الطيبة، وضرورة عدم التأخير خارج المنزل، إلى آخر القائمة التى باتت أذناى تحفظها عن ظهر قلب، مع بعض الدعوات المباركة. لتحفظنى من الحسد والجوع والضياع والتشرد.

وهكذا انزلقت العشرة قروش إلى أحد جيوب سروالى. وشعرت بانتصارى. بعد عراك دام ثلاثة ساعات...

فى اللحظة التالية. كنت محشوراً فى الأتوبيسات المتجهة ناحية منزل صديقى

نظرت الفتاة التى تقف قبالتى مباشرة إلى عينى. بنظرة ملؤها الرغبة. ولكنها تصنعت التململ. لم تكن بى رغبة. ومع ذلك أبديت التململ. وبادلتها النظرات. اقتربت منها وكأن هذا مصادفة. مالت ناحيتى وكأن الزحام هو الذى يدفعها. شعرت بصدرها بضاً. يخترق بسهامه تلك الألواح العظمية المتخشبة فى صدرى. للحظة أدركت أن الأمر جاد، فقد ارتفعت درجة حرارة أذناى وخدى، وشعرت بجسدى ينضح كالآنية الفخارية. بينما

الفتاة تبتسم. كأنها تسمر مع إحدى صديقاتها. خفت أن يفتضح أمرى بعد أن تطور. حاولت الإفلات، ولكنها منعتنى بعينيها.

كانت الفتاة من نفس سنى تقريباً أو أصغر. وكنت مندهشاً كيف تملك هذه الجرأة. وكيف أنا على هذا الجبن. وأفقت على السائق يصيح بأنه لن يتقدم خطوة واحدة بعد ذلك فهذا الأوتوبيس عهدة. وهو لن يستطيع أن يتحمل تكسر زجاج نوافذه، أو احتراقه.

وجدتنى فجأة فوق الرصيف. ربما بقوة الدفع الذاتى للركاب المذعورين. وكان الزحام شديداً، فأخذت أبحث عن الفتاة ذات الصدر البض، فلم أجدها، كأنها فص ملح وذاب.

توقف الأوتوبيس عن مواصلة المسير. لأن الميدان كان يبدو كساحة معركة. فقد كانت الأحجار الصغيرة تغطى كل شبر فيه، وأخذ الناس يدورون حول أنفسهم. وتساءلت معهم ما الخبر؟ وجاءت اجابات كثيرة. استطعت أن ألتقط من بينها أن طلاب الجامعة معتصمون بداخلها.

هالنى الأمر. أدركت أن شيئاً خطيراً يحدث فى هذا المكان. فركت يدى استعداداً لرؤية شيئاً ما ممتع ومن المؤكد جديد بالنسبة لى.

إضطربت كتلة الركاب. وسرت كهربة فى الجو. سرحت بذهنى. وتذكرت فيلم نضال المحترفين والمصارعون العشرة، الذين رأيتهما بسينما ميراندا، فى الأسبوع الماضى.

عدت بذهنى إلى الميدان. ففوجئت بأن الميدان خال إلا منى ومن تلك الأحجار المبدورة فوق سطح الأسفلت.

كانت المحطة التى توقف عندها الأوتوبيس هى المواجهة لبوابة الجامعة الرئيسية. يباعد بينهما ميدان صغير. وعدة تقاطعات. على اليمين من الميدان كان هناك كشك خشبى بدرجات سلم قليلة. ليقف به عسكرى المرور. لكنه لم يكن موجوداً. وقباله بوابة الجامعة الحديدية، كان هناك عموداً من الرخام يقف منتصباً وحده. بدون تمثال عليه لا أدرى لماذا. وفوق هذا كله، كانت تهيمن قبة ضخمة. أضخم من أى قبة رأيتها من قبل.

شعرت بسعادة غامرة ورهبة. حين وجدت نفسى وحدى فى هذا الميدان المتسع، والذى إعتدت أن أجده مزدحماً بالطلاب والفتيات الجميلات، وحركة العربات التى لا تتوقف. أخذت أتجول فى الميدان وأنا أضع يدى فى جيوب سروالى. أقذف الحجارة بقدمى، ثم أنتقى منها أحجارا مستوية، أطوح بها فى الهواء

بذراعى، وأنا أميل بجذعى، وأجعلها تنطلق وكأنها فوق صفحة الماء، فقد كانت تلك هوايتى، كلما وجدت بركة من المياه قريبة من متناول يدى.

وإذ أنا على هذه الحال، سمعت صوتاً جهورياً كأن الهواء المحيط بى يخاطبنى. كاد توازنى يختل، وأسقط على الأرض وتنغرز الحجارة الكثيرة المدببة فى جسدى.

- سلم نفسك وإلا حنضرب فى المليان...

إنفتحت البوابة الحديدية العالية. وإنطلقت صيحات عالية كثيرة.

- ارجع يا مجنون.

عالم بياكل فى عالم جعان

ومشروع خيانة مع الأمريكان

اندفعت أجرى مذعوراً، ناحية البوابة الحديدية فقد تصورت أن هناك كلاباً تجرى ورائى. وتلقفتنى عشرات الأيدى...

- يا عم الشجاعة مطلوبة، لكن مش للدرجة دى.

- إنت طالب فين؟

- أنا .... وتلعثمت فى المعهد التجارى.

وإنطلق أحدهم، وكان صوته عالياً، وأعلن للمئات المتجمعة في مدخل الجامعة وهو رافعاً يدى في الهواء كالأبطال المنتصرين على حلبة الملاكمة.

ـ طلبة المعهد التجارى ينضمون للإعتصام، ويؤيدون الحركة الطلابية...

ـ هو ٥٥ ... هو ٥٥ ... هو ٥٥ ...، وإرتفع تصفيق حاد، وهتافات لم أستطع أن أميز كلماتها... ولكنى نظرت خلفى أبحث عن طلبة المعهد التجارى، فلم أجد غير البوابة الحديدية.

ولكزنى أحدهم فى كتفى.

ـ إنت ممثل المعهد التجارى؟

ـ ممثل !!

ـ طيب عظيم ... إحنا حا نحاول نتفادى الكلاب اللى بره دول، لأن المهم هو أن نصل إلى ميدان التحرير، ومجلس الشعب...

ولما كان بينى وبين كلاب شارعنا عداءاً مستحكماً، فقد خفت، رغم أننى وعلى ما يبدو، من شدة الخوف منها قد احترفت قذفها بالحجارة... ولكنى تراجعت وتساءلت بصوت عال:

ـ بس يا جماعة أنا ما شفتش أى كلاب بره..

ـ إنت باين عليك ما عندكش خبرة بالمكان، وبأساليبهم. هما دايماً بيختفوا فى الجنينة هناك...

وأشار بيده ناحية الطرف الآخر من الميدان. وقد كنت أعلم أن هناك ناحية هذا المكان الذى أشار إليه حديقتين. حديقة الأورمان، وحديقة الحيوان. سألته بطريقة العالم ببواطن الأمور

ـ لكن المعارك اللى بينكم وبين الكلاب اللى فى الجنينة وصلت للدرجة دى؟

وأشرت للحجارة التى تغرق الميدان.

ـ طبعاً هما فاكرين أن البلد كلها جنينة حيوانات كبيرة، وكل شوية يسلطوا علينا كلابهم دول...

أدركت من فورى أن الأمر متعلق بحديقة الحيوان، وهمست لنفسى بأن الحديقة لم يكن بها كلاب، ولكنى خفت أن أوصم بالجهل مرة ثانية، ذلك أننى لم أذهب للحديقة منذ زمن، كل شىء جائز، ربما أصبح بها كلاباً الآن.

ـ الآن سننطلق بإتجاه الكوبرى، والمهم هو عنصر المفاجأة.

هكذا صاح عدة أشخاص.

أقول لكم الحقيقة، لم أدر إلا وأنا وسط الميدان أجرى وأقذف بالحجارة، كيفما اتفق. وجدتنى وكأنهم عصروا فى أنفى كمية من البصل. وقفت فى مكانى. لا أرى. دفعت عدة دفعات، كانت نتيجتها أن وقعت على الأرض، وداستنى عشرات الأقدام. ثم طرت فى الهواء. وتلقيت ضربات ساخنة صماء. وحلمت أن أبى يصفعنى على قفاى. ثم استيقظت من الحلم وأنا فى غرفة صغيرة ذات لون رمادى كالفئران. فى أعلاها كوة صغيرة. ذات باب أجرب. موصد. فى أعلاه فتحة عليها مربعات حديدية.

إحترت فى أمرى. هذا ليس منزلنا، وليس منزل صديقى. أخذت أطرق الباب، فقد شعرت بالعطش، والرغبة فى التبول.

تلقفنى رجل طويل، ذو شارب أجعد وكث، وجرنى خلفه من منتصف ذراعى الأيسر... وفى حجرة ليس بها إلا مكتب وحيد، خلفه رجل أبيض، حليق الذقن، يرتدى ملابس عادية.

قال لى: المرة دى إحنا عندنا الخريطة كلها... وأشار بيده إلى الحائط خلفه، فتبينت فرخ ورق أبيض كبير، عليه خطوط هرمية ومثلثات كثيرة لم أتبينها.

- خريطة إيه دى؟

ـ خريطة بيتكم يا شاطر. لما تروح هناك حا تعرف.

نظرت للفرخ الأبيض جيداً، علنى أجد منزلنا، ولكنى لم أجده، فقد كنت أعرف موقع منزلنا جيداً.

ـ تسمح أعرف أنا فين هنا؟

ـ فى الهيلتون يا بابا... وصلت العربية؟ طيب خذوه.

وجدتنى مرة ثانية وسط القاهرة. حركة المواصلات وإزدحام الناس... بحثت فى جيوب سروالى عن العشرة قروش فلم أجدها، واندهشت، عل أحدهم، قد سرقها منى فى الزحام.

فقلت لهم: هنا كفاية. أنا ممكن أنزل هنا. ذلك أن أحد خطوط المواصلات كان قريباً من إتجاه منزلنا. وأضفت:

ـ ولكنى فقدت عشرة قروش كانت معى.

ـ إسكت يا خويا ... مش عاوزين ولا كلمة.

جاء الرد قاطعاً. فاعتقدت فى نفسى أن هذا الرجل حاد الطباع بعض الشىء.

وبالقرب من ميدان الإسعاف، وفى إحدى العمارات الشاهقة صعدنا عدة طوابق على أقدامنا. فقلت لهم:

ـ أنا أحب ركوب الأسانسير. ذلك أن بيتنا لم يكن به أسانسير.

كشر الرجل حاد الطباع فى وجهى وكأنى نطقت كفراً.

ـ انتظر هنا.

ـ لكن أنا عاوز أروح.

لم رد !!

فى غرفة مضيئة بها مكتب، أفضل من المكتب السابق. يجلس خلفه شاب صغير، ويرتدى نظارة طبية، ورجلان آخران، أحدهما يجلس بجانب المكتب ممسكاً بيده قلم حبر ماركة تروبين. والآخر يجلس بعيداً على كرسى فوتيه.

ـ اسمك إيه؟

ـ هو فيه إيه؟

ـ اسمى عباس.

ـ ما هى طبيعة علاقتك بالحزب الشيوعى السرى؟

ـ أنا مفيش أى طبيعة علاقات بينى وبين أى حد. الحكاية إن أنا كنت رايح لمحمود زميلى، وكنا حننزل نلف شويه، لكن الأوتوبيس وقف و ...

- أين يسكن زميلك محمود؟

- محمود ساكن في إمبابة، لكن أنا ما أعرفش إسم الشارع بالضبط، لكن ممكن أروحه وأوصفه لأى حد. يعنى سهل ما يتوهش.

ردد الشاب الذى يسألنى، عينيه بنظرات متتالية ذات معان مختلفة للشخص الغريب الذى يجلس على الفوتيه البعيد، ولا يفعل شيئاً سوى البحلقة في وجهى، لدرجة أننى شعرت بأهمية كل كلمة أقولها، لأنه كان يمد رقبته ويطرطق أذنيه لينصت كلما تكلمت. أدركت أننى ذو أهمية لدى هؤلاء الناس غرباء الطباع. ثم نظر إلى أوراق أمامه وسدد نظرة حادة إلى عينى، وهو يضيق عينيه...

فقلت لنفسى: لماذا يحاول هذا الشخص أن يخيفنى رغم أننى لا أعرفه، وليس بيننا معرفة سابقة؟

أشار بعينيه إلى الذى ينكفئ على الورق ويكتب وقال:

- محمود ده إللى إسمه عماد ومسئول عن خلية ستالينجراد لمنطقة مصانع امبابة.

فكرت أن الشاب ذا النظارات، كان يضيق عينيه ليس ليخيفنى، ولكن لأنه لم يفهم أو لأن به بعض الغباء، فكيف يكون الشخص إسمه محمود وفى نفس الوقت إسمه عماد، ثم من هو

عماد هذا. مؤكد أنه لا يفهم ما يقول. لأنه يحاول أيضاً أن يغطي غباءه بنطق كلمات انجليزية كبيرة ليبين بها أنه فيلسوف باللغات. فما هذه الستالينجرا التي يقولها فجأة. بحذلقة وبدون مبرر. ومع ذلك وحتى أبين له أنني شخص صبور قلت له:

بقولك محمود زميلي إسمه محمود مش عماد، وأنا لا أعرف أحد إسمه عماد.

ولكني حتى أغيظه تجاهلت أن أسأله عن الكلمة الإنجليزية التي قالها وحشرها حشراً في الكلام.

تنبهت إلى أن ثلاثتهم يتبادلون النظرات ويحاولون أن يفعلوا بي كما يفعل أبي أحياناً حين يحاول إيقاعي. ليسأل عن نقود له إختفت من المنزل. ويتصور أنني الفاعل، فيظل يلف ويدور لينصب لي الفخاخ. وأكون أنا مدركاً لبراءتي، فأظل أحاوره وأناوره حتى يغلب حماره.

أعطيت للشاب ذي النظارات بطاقتي الشخصية وقلت له:

من المؤكد أنكم تخلطون بيني وبين شخص آخر له صديق إسمه عماد.

أخذ بطاقتى وجعل يتفحصها، وبها إسمى وإسم أبى وإسم جدى وكل من خلفونى ومولدى وعنوانى بهذا البلد.

رغم ذلك فوجئت به يباغتنى بمزيد من الغباء الغريب، لدرجة أننى دهشت كيف يجلس أشخاص كهؤلاء على مكاتب حكومية ويتحدثون بلهجة جادة كأنهم رؤساء جمهورية.

قال بفصاحة أضحكتنى:

ـ إنت يا عثمان متهم بأنك مسئول عن مكتب الطلاب باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السرى، وقد جاء بتحريات المباحث بأنك بتقوم بقيادة لجنة كروبسكايا التى يقع فى نطاقها جامعة عين شمس والأحياء المحيطة بها. وانكم تجتمعون بالمطرية بشقة فتحى اللى إسمه عمر ومحمد اللى إسمه جمال وصبرى إللى إسمه مختار، فما رأيك فيما جاء بتحريات المباحث؟

نظرت للشاب المسكين فى بلاهة، وإعتقدت أنه يصر على أن يبدو وكأنه مجنون، وقررت أن آخذه على قدر عقله، حتى لا يصيبنى منه مكروه، وحتى أنفد بجلدى من ذلك المكان الغريب.

فقلت له:

ـ أنا يا فندم ماليش رأى فى أى حاجة، وأنا شخص مش مسئول عن أى حد أو أى حاجة فى البلد دى، ولو أحضرت أبويا إلى هنا حيقولك إنى إبنه وإن إسمى عباس.

فنظر لى شذراً !!!

ـ لكن لو حضرتك بتصر على إن إسمى عثمان، خلاص أنا إسمى عثمان بس أروح على بيتنا.

وهنا دق ذو النظارات الطبية على المكتب ونظر للرجل الجالس على كرسى فوتيه، وأشار للذى يكتب وقال:

ـ بناء على تحريات المباحث وإعتراف المتهم بما هو موجه إليه، وبناء على إتهامه بمحاولة قلب نظام الحكم القائم باستعمال العنف، وهدم أسس الأمن والسلام الاجتماعى وفرض النظام الشيوعى وديكتاتورية البروليتاريا بالقوة تقرر ...

عدت إلى منزلنا بعد ستة شهور، لأجد أمى قد كفت عن إحداث قرقعة الصحون فى المطبخ، ولم أعد أطلب من أبى نقوداً، ولم أفكر فى زيارة صديقى محمود حتى الآن.

طابور عيش ..



كان هذا الشتاء مليئ بالأتربة والرياح. مكفهراً. كوجه زوجة عمى. وليس كالشتاء السابق. مضطرباً. كوجه عم جرجس صاحب المنزل الذى يسكن به عمى، فالشمس لا نراها طيلة النهار، لأن السحب كثيرة. لا تظهر إلا وكرتها الحمراء تغرب قبل حلول المساء. وعلى الرغم من أن الأمطار تسقط فى الصباح، ويقولون أننا فى الشتاء إلا أننا لا نتحمل الأغطية ليلاً...

منذ كنا أطفالاً ونحن نخاف عم جرجس، لأنه كان كثير الشتائم. والرفس كان وسيلته الأساسية للتعامل مع أطفال الحى. بينما كان الكبار نصيبهم منه البصق أو الضرب أحياناً. كان يجلس دائماً على باب المنزل على دكته الطويلة. وحوله بعض الكراسى ، حيث كان بعض الأشخاص ذوى الشوارب الضخمة

مثله يجلسون ويدخنون الحشيش كل ليلة.

وكل ليلة يأتى صابر ومحمود الخبران يجلسان ويحششان هما أيضاً، وكانت جاراتنا تخاف أن تمر من الطريق أمام مجلسهم، لأنهم كانوا يغازلون نساء الحى بطريقة وقحة، ويتفوهون بألفاظ بذيئة وشاذة جداً، حتى أن أحدهم ذات مرة قام من مجلسه وأمسك أم محمد من صدرها. فأخذت تصرخ. وعلى صراخها هرول الأستاذ طلعت زوجها، وهو مدرس اللغة العربية بمدرستنا الإعدادية التى تبعد عن حينا بثلاث محطات للأتوبيس. لم يكن نصيب الأستاذ طلعت بشهادة كل العيون التى كانت تبحلق، إلا علقة ساخنة جداً، وسبعة أيام أجازة مرضية من المدرسة.

لم تكن تمر العربات من شارعنا، وكنت أظن أنها لا تمر لأن المجارى دائماً تطفح فيه، ويتحول الشارع إلى بحيرة سوداء كبيرة، يلعب فيها الأطفال وتستحم الكلاب. وحين سألت: لماذا لا يأتى الأتوبيس إلى هنا مثلما يأتى إلى الشارع الكبير؟ كانوا يقولون لأن شارعنا لا منفذ له. وكان بعض الكبار يصف شارعنا بأنه «حارة سد»، بينما البعض يطلق عليه حارة «المقاطيع».

وكنت في حيرة حين يسألونني في المدرسة عن عنواني، هل أقول حارة سد، أم أقول حارة المقاطيع؟ ولكنني علمت أخيراً أن عنواني هو القاهرة، تل العقارب، حارة شق الثعبان.

وقد ألححت في السؤال في حينها عما هو دخل العقارب والثعابين بإسم حارتنا، فأكد الكثيرون على أن حارتنا في الزمن القديم، كانت مسكناً للعقارب والثعابين، وقد أبدل الزمان سكانها من عقارب وثعابين إلى أناس عاديين، ولكن الحكومة أصرت على بقاء الحارة على إسم السكان السابقين.

كانت الحياة في شق الثعبان راكدة. معتمة. ولم أكن أدري هل بيوت شارعنا مليئة بالضجر والمعارك والسباب، ونشعر داخلها باختناق الأنفاس، والرطوبة تضغطنا وتلسع عظامنا في عز الشتاء. لأن هناك بركة سوداء تغطي كل شارعنا؟ أم أن البركة أصبحت سوداء لأن قلوب سكان الحارة سوداء ومليئة بالضغينة والحقد؟

كان كل شيء في حارتنا ثابتاً ثباتاً عجيباً، رغم أنهم قالوا لنا أن الأرض كروية وتدور كل لحظة حول نفسها، وأن الأرض إذا وقفت يموت الناس.

فكل إمرأة فى الحى كان لها لقب لا يتغير أبداً. بمرور السنوات. فأم عادل نجار المسلح الذى يكسب كثيراً، ولكنه لا يعود إلا آخر الليل، إسمها «الغولة»، لأنها كانت ضخمة جداً، وتخرج كل صباح منكوشة الشعر، متورمة العينين، مكشرة عن أسنان صفراء، لتتعارك يومياً مع «قدرة» بائع الفول المتجول، وفى أحيان كثيرة كانت تطرحه أرضاً لأنه لم يعطها مغرفة فول إضافية.

والمنزل الجديد على ناصية الشارع، وهو منزل متهالك وقديم، ولونه باهت، ومع ذلك فكل حارتنا تسميه البيت الجديد. وتسكنه امرأة يسمونها العروسة. وهى امرأة لها من الأولاد والبنات سبعة. وشعرها يقترب من البياض، ومع ذلك يسمونها العروسة. لأنها آخر من تزوج فى الحارة. ويسكن فى هذا البيت أيضاً رجل طيب ممتلئ الجسم بعض الشىء يضع نظارة على عينيه. يطلقون عليه إسم «الدهُل» لأن إمرأته أشاعت أنهما حين تزوجا لم يعرف كيف يدخل بها. وهو فى نفس الوقت والد صديقى أشرف الذى يذهب كل يوم معى إلى المدرسة. دكان عم عكاشة بحارة مفتاح المجاورة لحارتنا والذى حال لونه إلى سواد شديد. وتمتلئ شقوقه بالفئران. والذباب يعف على كل شئ فيه ويسمونه البقال الجديد.

وأزيد من ذلك أن زوجة عمي يطلقون عليها إسم «الولية الهجمة». فقد كانت قوية البنيان ولها جسد كالثور، وصوت إن أطلقته. لأنكفأت على وجهك وأنت تسير بالطريق. والنساء يرتعدن منها. حتى تنكمش كل واحدة في جحرها إذا سمعت صوتها، والباعة يقدمون لها فروض الطاعة، وأفضل ما عندهم، حتى يمكنهم دخول الحارة.

وللحق أنها رغم قسوتها حتى معنا في البيت، إلا أننا بفضلها كنا نحظى في الحارة بالأمان والاحترام.

أما أكثر الأشياء ثباتاً في هذا الحي. فهي أنني كنت المسئول بلا منازع. عن شراء العيش في البيت. فكنت أعود يومياً من المدرسة لتناولني زوجة عمي بشكل ميكانيكي حقيبة العيش والنقود. وتوصيني بسب الأيمانات المغلظة، ورأس أبي، ودين أمي. أن أشترى عيشاً طازجاً. كبير الحجم. أبيض اللون، وبه قليل من الردة، وتنبهني بشكل متكرر وممل كالإسطوانة المشروخة، بألا يخدعني الرجل في الحساب. لأنها تعرف أنه لص لئيم يضحك على العيال، ويسرق الكحل من العين.

كنت أتدحرج بملل من على سلم البيت القديم المتهالك، فتخرج خلفى زوجة عمى لتلهب ظهرى بصوتها: بسرعة يا بن القديمة، فأطلق ساقاى للريح، وأنا أهز رأسى وكأنى أوكد إستيعابى لتعليماتها، وأتساءل فى نفسى: هل تعتقد زوجة عمى أن أمى قديمة وهى جديدة مثلاً؟ ثم أتذكر تعليماتها بضرورة عودتى بالعيش سريعاً. رغم علمى وعلمها أن شراء العيش يستلزم أكثر من ساعة فى الطابور الطويل.

قفزت طائراً من على عتبة البيت، حتى كدت أن أسقط فى البركة السوداء. المحاطة بالحجارة التى وضعها أهل الحارة. كأنها رصيف، حتى يعبر فوقها الناس، إذا جاء طوفان المجارى.

نظرت بامتداد البركة. وجدت العيال من سنى يلعبون بقذف الحجارة المنتقاة على سطح البحيرة السوداء، وكل فريق يقف قبالة الآخر من ناحيتى الطريق فى الحارة. ثنيت جسدى إلى الأرض، ومددت يدى لإلتقاط حجراً. شعرت أنه سيفوق كل حجارتهم فى الإنطلاق كصاروخ فوق صفحة البحيرة، وإذ بى وأنا على هذا الوضع يأتينى من علياء. الصوت الذى إن سمعته لأنكفأت على وجهك. فأنكفأت على وجهى. ولكن خوفاً من العقاب حجزت

جسدى من السقوط فى البركة بيدى. فتبللتا بالسواد وامتلأ أنفى بالروائح العطنة. نظرت إلى أعلى، حيث مصدر الصوت، وأنا ما زلت أسند جسدى بيدى، فوجدت وجهها ممتلئاً بعلامات الغضب، وعيناها تطق شراراً. قفزت أجرى كخروف، وأنا أشعر بتخدر ساقاى. ولسانى يكاد يصرخ، ولا أقدر على فعل ذلك، فخيالى يراها تطاردنى وتكاد تقبض على رقبتى وتخنقنى حتى الموت.

وصلت وأنا ألهث لا أدرى كيف إلى فرن على الأعور حرامى الدقيق، فوجدت عدد من الناس أزيد من كل يوم، وجميعهم يصيحون ويتحدثون فى حلقات واسعة كبيرة، بصوت عال، وتخيلت أنهم قد يقتلون على الأعور. سمعت سباً للدين وللحكومة.

بحثت بعينى عن فتحية زميلتى فى طابور العيش، فوجدتها أخيراً. جريت إليها وشددتها من جلبابها. كما أفعل كل يوم. وسألتها عن الخناق الدائر. انتبهت إلى وفرحت بمجيئى، وقالت لى بانفعال: الناس حتحرق فرن على الأعور لأنه زوّد الرغيف وبقى بقرش صاغ. وبعدين رايحين يحرقوا الحكومة كمان. اندهشت وصحت فى وجهها: دى لو مرات عمى عرفت حا تقتلنى.

تركتها وأخذت أعدو وأقفز من الفرح عائداً إلى الحارة، وأردت أن ألقى فى وجه مرات عمى بالخبر، لأرى الفزع على وجهها، وحتى تتطق من الغيظ. وفى الطريق وجدت الناس من كل الحارات المجاورة لحارتنا وقد إتجهوا لفرن على الأعور.

أخذت أصرخ من أسفل البيت: يا مرات عمى ... يا مرات عمى. وكنت أعرف أنها ستطل من النافذة وتسبنى، فتركتها تفعل ذلك. وكانت نساء كثيرات قد أطللن من الشبابيك، فقلت لها بصوت عالٍ أردت أن تسمعه كل الحارة: الرغيف بقى بقرش.

ضربت مرات عمى بيدها على صدرها وصاحت: نهاره أسود على الكلب. فقلت لها بنفس الصوت: الناس بيقولوا إن الحكومة هى اللى بنت كلب. نظرت زوجة عمى إلى البيوت المواجهة لها ونادت بصوت عال: يا أم عادل، يا أم محمد، تعالوا ننزل نشوف إيه الحكاية... دول باين عليهم اتجننوا.

خرجت نساء الحارة كلهن يمددن الخطى ويلغطن بأصوات متنافرة، شعورهن مهوشة، ويضعن الملاءات اللف على أجسادهن كيفما اتفق، وعلى رأسهن العروسة وزوجة عمى التى صارت كزعيم يقود مظاهرة، وأخذ الموكب يتسع كلما خطون بإتجاه

الفـرن ، لدرجـة أنـهن سـددن الحـارة التى بـهـا فـرن عم على حـين وصلن إليها .

سـاد هرج ومرج لدرجة أنه لم يعد مفـهوماً من يتكلم مع من ؟ !
ووجدت زوجـة عـمى وكنت أراقبـهـا تبـحث عن أحـد تخـرج فـيـه غيظها ، فاختفيت من أمامها .

صـاح صـابر المخبـر بصـوت عـال : ياللا يا وليـة إنـت وهى ، كل حـرمة تروح تـتلم فى بيتـهـا . وأخـذ يفـرق الجـمع بذراعـيـه والناس تفسح لـه الطريق كلما تـقـدم ، حتى وجد نفسـه وجهـاً لوجه مع زوجة عـمى . فإندهشت جداً لأن صابر المخبر إذا رأيته واقفاً وحده ، وجدته عملاقاً ، ولكنه حين وقف أمام زوجة عمى . بدا قزماً صغير الحجم ، وصدغيه الكبيرين يقفان على عصا رفيعة منتفضة العروق هى رقبته .

قـال لهـا مـرتبكـاً : جـرى إيه يـا وليـة إنت ناوية تقـفى قـدام الحكومة . . دا قرار من الحكومة .

وإنتظرت حتى أرى زوجة عـمى وقد كـسر أنفها وانسـحبت خوفاً من الحكومة إلى الحارة ، ولكنى فوجئت بصابر المخبر الذى كانت حارتنا وكل الحارات تخافه ويحييه الكبير قبل الصغير إذا

مـر أمامـه، وقـد انطرح أرضـاً وأخـذ يمـوء كـالقطط ذلك أن إمـرأة عمى نظرت إليه فى عينيـه وكشرت عن أنياب ضخمة، وصفعته بكف يدها صفعة تطيح بجمل. والتفتت بعينيها إلى العروسة وأخذت تخاطب الواقفين من خلالها : هى الحكومة عاوزة تموت عيالنا من الجوع؟

وإنهالت أم محمد وبنات العروسة والغولة من بعدها يمزقن صابر المخبر وهو على الأرض يتقلب بين أقدامهن.

داست أقدام الناس على أقدام بعض من شدة الزحام، ومن على ناصية الحارة جاء محمود المخبر زميل صابر ومعه العساكر التى ترتدى الملابس السوداء، وكل منهم يمسك فى يده اليمنى بالقايش ونزلوا ضرباً فى الناس. وإندفع الناس إلى داخل الحارة بإتجاه الفرن جرياً. يهربون من لسعات القايش الجلدى على أجسادهم. صاحت زوجة عمى وقالت : إتفوه عليكم، دانتو مش رجالة. ومدت يدها وأمسكت بقفص عيش وأخذت تضرب العساكر.

هاجت الناس، وأمسك الكثيرون منهم بأقفاص العيش كزوجة عمى، وأمسك عادل نجار المسلح عصا الفرن الطويلة وأخذ يطوح بها فى وجه العساكر، بينما الأستاذ طلعت والدهُل والد أشرف

صديقي قد أمسكا بمحمود المخبر وكادا يعجناه في الحائط كرغيف. وجريت أنا والعيال نقذفهم بالحجارة، فإندفعوا يهربون في الحواري والناس تطاردهم. حاصرناهم بحارة شق الثعبان. ومارست متعتي ووقفت أنا والعيال قبالتهم على الطرف الآخر من البحيرة السوداء. أخذنا نلاعبهم كفريقين، ولكن فريقنا كان يقذف بالحجارة، فيغرقهم بالمياه، ويذيقهم من رائحة العطانة، بينما فريقهم لا يحمل غير أحزمة وسطهم.

تركنا اللعب مع العساكر السوداء، حين صاح أحدهم في الحارة بأن الناس متجهة لقسم البوليس لتحطمه، فقد شج أحدهم رأس أم فتحي بكعب البندقية وهرب، وخطف آخر مع أحد الضباط على الأشول ابن الحاج إبراهيم اللبان في سيارة شرطة وانطلقوا به إلى القسم.

هاجت كل الشوارع والحارات. انطلقنا إلى القسم، واتسع الخبر. زادت حكايات حوادث ضرب العساكر والضباط للناس. نسيت الناس حكاية رغيف العيش وأخذت تتكلم في حكاية البوليس.

أعجبت بزوجة عمي وإفتخرت بها، إلى حد أنني كنت أشير عليها أمام كل الناس، وأقول هذه زوجة عمي، فقد وقفت أمام

القسم وسط زحام الناس، وهى تلعن أبو الحكومة ولا تخاف، وتهدد بأن تهد القسم على رأس أبو الحكومة ومن فيه.

اختبأ الضباط والعساكر السوداء داخل القسم، فأخذت الناس تمطرهم بالحجارة، خاف الضباط من الناس فأمروا العساكر بأن يمطروهم بالرصاص.

هجمت كل الحارات وزوجة عمى على المبنى، وأخذت تهزه وهو يرتج مرتعداً من الخوف حتى تهدم.

جاءت سيارات تحمل عساكر أخرى كثيرة. وتحول الناس الذين كانوا يحاصرون القسم إلى فريقين كبيرين.

فريق ذهب مع العساكر والضباط فى السيارات الكبيرة المغلقة.

وفريق تكونت منه بحيرة كبيرة حمراء حول مبنى القسم وفوق أنقاضه.

لم أعرف فى أى الفريقين كانت زوجة عمى...

باتت حارتنا السد ليلة سوداء، وهى خالية من سكانها الآدميين وعاد إليها سكانها الأصليين من الزمن القديم. الذين تسمت بإسمهم.

الباب ..



ككل مرة جلس معتدلا . قام بتنظيف المكان وترتيبه. اعتقاداً منه أن ذلك سيمكنه من الكتابة. وككل مرة يظل ممسكًا بالقلم. ينظر للأوراق ساهمًا ولا يرى شيئًا.. يلعن المكان والظروف والوقت الذى يضيع دون أن يستطيع الكتابة.. وتساءل : هل حقًا المعاناة هى التى تخلق الكاتب ؟ اذن لماذا لا يتحول كل الناس الى كُتاب ؟. ضغطت أصابعه من نهاية أطراف الكف. بالضبط على سن القلم. غرزه في الأوراق التي أمامه.

ذلك المكان العـجيب . تلك الكتل البشرية . وأكـوام اللحم المتراصة المتلاصقة . الجدار الملئ بالتجاعيد والثقوب المرممة ، كان المكان أشبه بزرائب الأبقار التى يراها فى أفلام رعاة البقر . رغم أنه كان ينقصها ذلك السياج الخشبى الداخلى . والمربعات الصغيرة التى تفصل ما بين كل بقرة وأخرى .

تسمرت أمام عينيه تداخلات الالوان عند المدخل .

قرر أن يمارس لعبة الاسقاط . فالباب مصنوع من أخشاب الشجر الغليظة ، ومبطن بنوع من الصاج سميك جداً . وفى نهاية مساحة الصاج تمزيق من أسفل . عند المنتصف كوة صغيرة ولكنها مسدودة . وأعلى الصاج مربعات حديدية .

تذكر ايام الصبا . وأمسيات التسكع على النواصى وفوق الكوبري العتيق . كان الجلوس على السور المطل على النيل . وتدخين السجائر دون ادخال الدخان فى الصدر . متعة ما بعدها متعة . حيث كان يرى وجوه الفتيات اللواتى أحبهن مرسومات على وجه القمر . كان قد أحب فتيات كثيرات .

كان غطاء الصاج بلا لون معين. فكم من البشر قد مروا من هنا. وجلسوا فى نفس المكان. وكل منهم، أضاف لونا معينًا. ولكنه لم يجد لونًا واحداً ثابتًا. فكل الالوان كانت باهتة متداخلة بشكل غريب. حيث جزء من خشب الباب المصنوع من أشجار عتيقة. تَبينُ مساحة لون سوداء واسعة تتحرك الى أعلى. كأنها ألسنة لهب ناجمة عن حريق ضخم. ومن بين مساحات اللون السوداء المدببة الى اعلى. وباتجاه القضبان المنحوتة اعلى الباب. تخرج خطوط طولية كثيرة كأذرع أخطبوطية متشابكة. عشرات الأكف المعروقة. تنشب أظافرها في سطح الصاج. بعض الأكف تدفع السدادة الموضوعة على الكوة والبعض يهز القضبان المربعة في أعلى الباب. وبين تلك الايادى الكثيرة تنتشر مساحات من لون رمادى باهت وبقع سوداء من آثار معركة الالوان المتراكمة عبر السنوات. فى اطراف مساحة الصاج لون أزرق رائق. لكنه قديم ذلك أن لون مربعات القضبان الاسود يغطى على اللون الازرق، فيسرق منه العين. ويكسره. فأراه رماديًا باهتًا.

مارس لعبة الاسقاط. حين نظر الى باب الزنزانة. رسم لوحة كئيبة. جعلته لا يتمكن من البدء فى الكتابة، فلم يكن من ذلك الصنف من الناس الذى يكتئب، فيتحرك القلم فى يده ليكتب شيئًا. كان يعتقد أن الكتابة هى لحظة نشوة. من أين تأتيه النشوة، فى ذلك المكان المستطيل.. وتلك الدلاء تنتصب أمام عينيه ليل نهار، وينام دائمًا بالقرب منها.. وهو يعلم أن هذا دلو البول وذاك دلو البراز..

ولكن ذلك لم يمنع من توصيل أسلاك السخان الكهربائى المهرَّب، ومن دوران اقداح الشاى. لتبدأ دورة جديدة من لعبة الاسقاط.

الموت الرّطب ..



سألت الرجل الجالس على عتبة الباب ذى الحركة المروحية أن أدخل. أجاب بالرفض، لابساً قناع التجهم والإزدراء على وجهه. كأنه رضوان حارس الجنة.

دفعت الباب برفق وتخطيت عتبات الأبواب الموصدة رغم رفضه.

وجدت أمامى صندوقاً معدنياً ضخماً به أربعة أبواب زجاجية. كل باب به مقبض كبير، والرجل الذى يرتدى معطفاً أبيض منهمكاً فى عمل ما. والمرأة المتشحة بالسواد وتضع على رأسها منديلاً أسود، تقوم بترتيب أقمشة بيضاء وملونة على منضدة معدنية مستطيلة أمامها وذات عجلات صغيرة.

عمتى الكبيرة كانت واقفة على يمين الصندوق الكبير، محمرة العينين ووجهها متورماً، بينما عمتى الصغيرة تبكى وصوت نشيجها يعلو بين حين وآخر متقطعاً.

زمجر الرجل ذو المعطف الأبيض فى وجه التى تنشج وهددها بإخراجها من المكان . أدار الرجل مقبض الباب الزجاجى الأعلى ناحية اليمين .

شعرت برطوبة شديدة فى المكان . التفت فجأة للمرأة التى تتشح بالسواد وترتب الأقمشة . وجدتها ترتدى ملابس كهنة معابد آمون ، والأبخرة الهلامية الرطبة تتصاعد أمامها وهى تمسك بلفائف الأقمشة الشفافة . مبللة . بينما الجثة تعد للتحنيط .

حين تنبهت لأمر الجثة . عدت أبحث عن الرجل ذى المعطف الأبيض ، فوجدته يسحبها من الصندوق المعدنى ذى البوابات الزجاجية الأربعة . زادت التى تنشج من نشيجها الذى لم يعد متقطعاً .

أغلق الرجل الباب المعدنى ، فصفع الصوت ذاكرتى . نظرت إلى الزجاج فرأيت وجهها منعكساً ، فتذكرتنى طفلاً وكيف كانت تحكى لى عن جدى وكيف كان عظيماً .

فى بيت كبير بعزبة النخل ، وحديقته لا نهاية لها ، كانت تعيش . لم تكن تعرف بائع خضار أو فاكهة ، فكل شىء غرساً ونبتاً كان بالحديقة .

«بعد صلاة الجمعة كان جدك يوزع على الفقراء من خيراتها ومن لحوم الخراف والماعز المذبوحة».

فى مدرسة الأرمن بشارع الجلاء، كانت تغنى الأناشيد الأجنبية «لفت رايت أواى وى جُنْ» وتحب مدرستها الميس الانجليزية مارجريت التى كانت تصفف شعرها القصير على طريقة هيدى لامار، تركب دراجتها وهى ترتدى شورتاً قصيراً يبيِّن أفخاذها البيضاء. وتدير آلة الإسطوانات الموسيقية لتعزف ألحاناً جميلة أثناء الحصص. لم تتوقف مارجريت عن قراءة الشعر للفتيات ومقاطع من شكسبير والحديث عن أوروبا وتحرر المرأة.

حامت عينى فى المكان فتحركت أمامى شخوص وأشياء ملفوفة فى غلالات رقيقة. سمعت قرع طبول وغناء. جوقة معبد آمون تترنّم وتصلى. رأيتهم يهمون بحمل الجثة. دفعت الشخوص. وتكلمت بصوت لم يسمعه أحد غيرى. رفعت عن الوجه الحنون أقمشة التحنيط. قبلت الوجه البارد المشبع برائحة الفورمالين. لمحت عينى إغلاقة الرمش الحانية. ملّست بكفى على وجهها، فتحت عينيها واعتدلت فى جلستها. أخذتنى فى صدرها وخرجت من فمها المطبق على ابتسامة فاترة أزهار فل وياسمين.

همستُ فى أذن الفراشات البيضاء التى أمتلء بها المكان وهى ترفُ فوق الأبخرة الرطبة بما كان ينساب فى الأمسيات القديمة «إياك أن تخطئ فالعصفورة تخبرنى بكل شئ تفعله. إكبر يا حبيبى ولتصير رجلاً مثل أبيك وجدك».

رددت الفراشات أناشيد چوقة آمون. بالأمس إكتملت سبعة أيام دون أن آراها. زاد المرض وتثاقلت الأطراف. ولم أعد أعرف نفسى. لا الكاهن ينقذنى ولا الرقى تشفينى. مرضى مستعصٍ لايعرفه أحد.

هى التى وهبتنى الحياة. وأسمها سيبعثنى من جديد. حبيبتى هى خير دواء. وليس من طبٍ عداها. فلتأت وتفتح عينىَ بأناملها الرقيقة، وسوف تتحرك بعدها كل أطرافى. ولتحدثنى حتى استعيد قوتى وأحتضنها. فإحتضانها يشفى علتى.

قد كان جدك تاجراً. يملك دكاكين كثيرة. تبيع ألف صنف وصنف. منها ما كان فى الازهر وأرض شريف ومنها ما كان فى بواكى العتبة.

يوم مات كان أبوك وأعمامك مازالوا أطفالاً.

لم أكن أعرف أى شيء فى أمور الدنيا. نهبوا البضاعة من الدكاكين قبل دفنه. بعد أيام قالوا إعطى توكيلا لمحام بارع. يصرِّف أمور الرجل الراحل ويمنع عنك وأولادك شرور عماله.

من حارة اليهود جاءنى ابراهيم بنيامين، أخذ منى توقيعى على الاوراق وأنا وسط الأحزان. أفوض أمرى لله. باع الرجل كل شئ واختفى.

أُخرجت من دار جدك ونزحت بعيالى على عربة تجرها الجياد إلى المدينة. عشنا فى بيوت الآخرين. لم أغنم من الدنيا إلا أنتم.

فى مقابر البساتين هدأ الموكب. بعد أن صلينا فى سيدنا الحسين. ولم أكن متوضئًا. إزداد العويل وبكى الجميع. لم يبك أبى ولم أبك أنا.

حملنا التابوت إلى الداخل بعد أن نزلنا عدة درجات. رفعوا غطاء التابوت وحملنا الجثة لنوسدها التراب فى حجرة على اليسار. رفعوا عنها لفافة القماش الأولى وعفروا الباقى بتراب الأرض.

سألت هى لماذا التراب؟ فغمغم الآخرون بكلمات لم أفهم منها شيئًا. قلت لها أن تطمئن ما هى إلا طقوس وينتهى الأمر، وأخبرتها أنى سآتى لأراها.

آدار لاعب القيثارة وجهه ناحية المكان الذى ترقد فيه وغنى ألحانًا شجية.

ضع نصب عينيك التمتع بالموسيقى والغناء وأطرح جانبًا أسباب الأسى والألم. ولا تذكر إلا المرح والسرور حتى يحين يوم الرحيل إلى المكان الذى يخيم عليه الصمت.

ارتفعت أصوات المقرئين بالآيات القرآنية. ها أنت تغنمين.فقد غرست فى حياتك أشجارًا تدفئها كل يوم شمس قوية.

عاد موكب السيارات الكثيرة. يمر بطرقات المدينة الصاخبة. فمررنا بالأزهر بموازاة حارة اليهود. وانحرفت بإتجاه بواكى العتبة وأرض شريف. وخيم الصمت على الجميع.

جلاجل الفجر ..



صعدت قفزا درجات السلم العالى. فتحت الباب. صدمت أنفى رائحة المكان. النوافذ المغلقة لزمن طويل. تحسست الحائط وأضأت اللمبة المدلاة من السقف. كان ضوئها ساطعاً. أغلقتها، وتلمست أقدامى طريقها عبر إنكسارة الضوء الآتية من ضلفتى الشباك الخشبى. أضأت المصباح الصغير ذا الضوء الخافت على الطاولة. تأكدت من أن النافذة مغلقة بإحكام. خلعت ملابسى وبقيت عارياً تماماً. شعرت بالراحة. أعددت كوباً من الشاى. عبأت الغليون. وتمددت على الكنبة.

أسندت ظهرى على الحائط وسرحت بعينى إلى الحائط المقابل، فوجدت صورتها. وخزتنى الذكريات فى ظهرى. شعرت بلسعة

برد، قمت من مكانى، وارتديت جلبابى الصيفى الخفيف، أمسكت كتاباً وأخذت أبحث عن قصة فيه لأقرأها وأنام...

برقة قالت: إنت ضرورى كل ما نمشى فى الشارع سوياً، تمشى أنت من ناحية العربات.

فارتبكت.

ـ يعنى... لا أقصد... لكن حتى لا تضايقك، ولأنى أخاف عليك منها وهى مسرعة.

ـ يا سيدى إيه الفروسية دى...

قلبت صفحات الكتاب وأخذت أنظر بعينى فى الفهرس. أطلت ابتسامتها الجميلة على.... حين كنا نجلس بالكازينو فى أوقات الغروب...

أخذت نفساً عميقاً، فشممت رائحتها تخرج من حوائط الغرفة، فشعرت بثقل فى صدرى. قلت لها بتبرم:

ـ أعتقد أن هذا الشخص الذى يفرض صداقته علينا له هدف فى ذلك.

قالت: تقصد إيه ؟

قلت: النماذج دى من البشر لا أستريح لها ولا أحبها.

رائحتها تفوح على بعد أميال.

ومن بين أسنانها أعادت: تقصد إيه؟

قلت: يعنى واحد كل ما نقابله يظل يعرض لنا صوراً له مع فتيات كثيرات من كل أنحاء العالم، ويحكى قصصاً عن مغامراته الفتاكة، ثم يحاول أن يبدو ملاكاً بنعومة حديثه عن نفسه وعن قراءاته الفذة فى مكتبته الضخمة.

قالت: أيوه. لأنه مثقف تقدمى.

قلت: وهل المثقف يعنى وجود كتب فى مكتبته لا حصر لها وهو نفسه لا يعرف ماذا عنده من كتب؟ الحكاية أنه معاه فلوس... هل تذكرى حين كنا عنده وذهب يعد لنا القهوة، وأخذت أنا أقلب كتاباً كان على الرف، وحين عاد سألته عن رأيه فى الكتاب، فقال أنه لم يره من قبل، وتصور أنه كتابى.

قالت: ممكن المثقف يكون فى مكتبته كتب لم يطلع عليها بعد.

قلت: وإيه رأيك فى القواميس التى بمكتبته فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وحتى الإيطالية، وهو لا يعرف غير الإنجليزية الركيكة مثلنا؟

قالت : هل هو تحقيق ؟ إذا أردت أن تعرف إسأله بنفسك .

قلت : أنا لا أسأل أحد . أنا أسأل نفسى . هذه العلاقة بمجملها غير طبيعية ، ويجب أن تنتهى .

قالت : أنت لا تثق بنفسك . أم لا تثق بى ؟

تنبهت للشاى ، أمسكت الكوب ، فوجدته كاد أن يبرد . فأسرعت أرشفه . ألقيت الكتاب على الأرض ، وشددت غطاءاً خفيفاً . أطفأت المصباح الصغير ، فكف ضوئه عن السقوط على الطاولة . سويت رأسى على الوسادة ، وقلت لنفسى وأنا أمط شفتى للأمام :

ـ مثقف يا حسرة ... مثقف ... وهى البلد دى فيها كام مثقف بيعمل حاجة عليها القيمة ؟

ورحت فى نوم عميق ، ملابسى الخفيفة والغطاء الرقيق جعلت البرد يوخز عظامى .

إستيقظت قلقاً ، ولم أتحرك . شعرت بثقل رأسى ... مرت عربة القمامة ، فسمعت صوت الجلاجل المعلقة فى رقبة الحمار الذى يجرها ، فابتسمت وأدركت أنه الفجر ...

ضيقت جوانب عينى، وحاولت أن أرى العقارب الخضراء في الساعة المثبتة بمعصم يدى اليسرى، فكانت أقل من الرابعة صباحاً... حاولت مرة ثانية أن تطل بعينيها من الصورة التى توارت الآن بعيداً عن الإنكسارات الخفيفة للضوء ولتجهد ذهنى ببعض الحكايات القديمة بيننا. فاعتدلت متثائباً وأنا أنشر كفى بين وجهى ووجهها، وفتحت الشباك وخرجت إلى الشرفة. استنشقت الهواء، ورأيت بدايات الضوء الجديد.

نظرت لأسفل، فودعت عيناى في نهاية الطريق الممتد ناحية الشمال عربة القمامة، التى أخذت كل شىء من الشارع، وتوقفت لتلقيه هناك.

وقفت تلال القمامة بنهاية الطريق شاخصة أمامى، مرت لفحة هواء من تحت أذنى. أغلقت الشباك. جاء صوت الميكروفون: الصلاة يا مؤمنين الصلاة، الصلاة خير من النوم...

دخلت تحت الغطاء، وحاولت النوم ثانية.

الجملة المعلّقة . .



قلص أصابعه وأدار مفتاحه في الباب. ودون أن يتنفس سار على أطراف قدميه. إنزلق إلى حجرة مكتبه بهدوء. أغلق الباب خلفه، وهو يرجوه ألا يصدر أى صوت. فكر أن يضئ شمعة. لكنه أضاء المصباح الصغير المثبت أعلى المكتب مباشرة، وهو يضغط أصابعه على ذر النور ليكتم صوته. تمنى لو كان بإمكانه أن يدير المسجل ليسمع شريط الفالس الذى يعشقه.

جلس إلى أوراقه. وأسرع ليسجل تلك الفكرة التى سرح فيها طيلة الطريق إلى المنزل، والتى رأى أنها تحمل مشكلة الجزئية

الدقيقة فى الحوار الدائر بين الفتى والمحقق فى الرواية التى يكتبها. ركز تفكيره بشدة. تكثفت الجمل فى مخيلته. أخذت الكلمات تتحرك كراقصات باليه يقفزن على أصابع آلة البيانو.

أخذ ينتقى أدق الكلمات تعبيراً عن الموقف... وحين انبثقت الكلمة، اهتدى إلى تركيب الجملة. بعد تركيز التفكير... أمسك البايب وهو سارح بذهنه، حتى يعطى نفسه فرصة، لتحديد الكلمة التى يبدأ بها الجملة.

أشعل البايب وأخذ ثلاثة أنفاس عميقة متتالية، فشعر بالإمتلاء وبانتصاره على الكلمات وقدرته على تحديها وتطويعها لتعبر عما يريد. أمسك بالقلم، بعد أن ثبت البايب فى فمه، وبدأ يكتب...

رأت الضوء منبعثاً من داخل حجرة المكتب، عبر عقب الباب، وكانت مارة من المطبخ إلى حجرة الأولاد، فاتجهت إليها فى هدوء شديد، وقبل أن تدخل، وقفت بالباب، لترتب فى ذهنها الموضوعات التى انتظرته منذ الصباح لتكلمه فيها، وحتى لا تنسى شيئاً. أخذت تعد على أصابعها، موضوعاً تلو الآخر.

فتحت باب المكتب. سقط ضوء المصباح الرقيق عليها، فلم يبد منها غير مريلة المطبخ التى ترتديها على صدرها، وتوارى وجهها فى ظلام الحجرة.

كان قد أنهى النفس الثالث من البايب، وخط السطر الأول فى الجملة... «ولقد كنت على بينة من مصيرى هذا من قبل، فإذا كنت إقترفت بذلك خطيئة فقد اقترفتها عن قصد وتدبير...»*

قالت : مساء الخير.

فلم يرد.

دخلت إلى منتصف حجرة المكتب، وحتى تبرر وجودها ولا تثير إنفعاله، أخذت تنظف بهدوء الكرسى الذى أمام المكتب، وبدأت ترتب - وهى تطل إليه بعينيها - بعض الكتب الموضوعة على المكتب فى حالة فوضى ظاهرة. نفخت بفمها الغبار من عليها. قررت أن تبدأ الحديث. كظم غيظه. قرر أن يتشبث بالجمل التى تركبت بهرمونية فى ذهنه.

قدرت أن لحظة الصفاء التى هو عليها الآن أنسب وقت للكلام بينهما. تحركت الكلمات فى ذهنها والزمن يقطع المسافات بينهما ولكنها لم تفتح فمها.

إنتظرت أن يستفسر، فلم ينطق.

عض بالنواجذ على الكلمات حتى لا تفلت من ذهنه، وجز بسن القلم على الورق.

أعادت المحاولة وإتصلت الكلمات ببعضها فسرحت إلى نفسها ولكنها لم تنطق.

ـ على فكرة، الموضوعات اللى عاوزة أتكلم معاك فيها تهمنا سوياً.

نظر إليها عبر زجاج نظارته، فسحبت عينيها وأسبلت جفنيها فوراً، كأنها لم تكن تنظر إليه.

مرت برهة، فرفعت عينيها اليه بحذر، لترى أين ينظر الآن. وضع عينيه بسرعة فى الأوراق التى أمامه، كأنه لا يدرك وجودها أصلاً، فرأى أنه لم يكتب غير السطر الأول من الجملة.

إنطلق جرياً إلى داخله. يبحث عن بقية الجملة التى بدأ تواً فى كتابتها. وجدها قد تاهت فى كهوف ذهنه. ركز أكثر ليجدها. طرق كل أبواب الذاكرة، ولكن عبثاً. وجد ذهنه محاصراً داخل سياج اللحظة، حيث وجد نفسه وقد بدأ فى تخمين ما ستقوله هى الآن عن حالتهم المالية، والأولاد والطبيخ والمصروف...

بدأت فى الكلام دون أن تنتظر أى رد.

- أنا عاوزة أتكلم معاك، لأنى عاوزة أساعدك علشان حرام يفضل الأولاد رايحين جايين من المدارس بدون أى مصروف. كل يوم أطبخ أكل ليس به أى لحوم. أنا مش طمعانة فى أى زيادة خاصة بى، لكنه علشانكم. إنت نفسك صحتك بتسوء كل يوم عن الثانى وعاوزة أقولك، ياريت تشوف ناشر آخر تتعامل معاه بدل اللى بيدفع الفلوس بالقسط ويأخذ الكتاب بالرخيص، وإذا كانوا كلهم زى بعض... فلا مفر من أن تبحث عن وظيفة أخرى بجانب الكتابة. حتى نستطيع أن نعيش حياتنا، والأهم مننا هو أولادنا اللى لا ذنب لهم.

بلع كل كلماتها، كحجارة أخذت تدق أمعائه، وأخذ يضرس، وهو يصدر صريراً متوتراً. نظر إليها بمقت، وأخذ يلوم نفسه. لماذا لم يتزوج بإمرأة أكثر رومانتيكية؟

نقر بأصابعه التى تعلق بها القلم على صفحات الورق، وأخذت ساقيه تهتزان فى حركة عصبية سريعة جداً.

توقف تفكيره فى أى شيء، عدا أنه فكر فى كيفية التخلص منها. حاول أن يقذف بالقلم الذى توقف عن الكتابة فى وجهها، ولكنه لم يستطع. لام نفسه على تفكيره حيث اكتشف أنه لا ذنب لها فيما يحدث.

أمسك بدوبارة قصيرة ملقاة على المكتب بجانب الورق وركز عينيه فى لا شيء ثم صنع عقدة صغيرة متداخلة كان قد تعلمها وهو صغير فى فرقة الكشافة بالمدرسة الإعدادية. أدخل القلم فى العقدة، وشد أطراف الدوبارة، ثم أمسك الطرف الأطول بإصبعى اليد اليمنى، وظل القلم يتأرجح فى الهواء معلقاً.

الطرف الآخر من النهر..



أحب النهر الكبير. تنساب مياهه في دمي. وفرع النهر الصغير. يفصل بيني وبينها.

تلك الصدفات الصغيرة أطأها بأقدامي، اسمع صوت تكسرها يضع ايقاعًا منفصلا مع حفيف الأمواج المقبلة وهي تتهادى رقيقة كطفلة صغيرة تُقَبِل الشاطئ. وتمسح عن الصدفات آثار أقدامي. تطل الشمس بنت أبي وأخت حياتي، فتشرق على صدري. تتفتح مسامي ليوم جديد، اتكئ بصدري على تلال الطين، التي صنعنا منها قصور طفولتنا. أداعب الموجة الصغيرة. نقنر الضفدعة. وينقنق ذكرها. أجري خلفها بنظراتي وابتسم. فتهرب الى شجيرات الحشائش الصغيرة على ضفة النهر الصغير.

ابحث عن وسيلة تصل بى الى ضفة النهر الأخرى. أنادى على الصياد بمركبته الصغير التي تطفو على النهر. ترمى زوجة الصياد بالشباك المرتقة فى قاع المياه، والمياه سارحة إلى الشمال. التفت اليها بينما الصياد يلوح لى بذراعه لأبعد عن المياه، فالاسماك تخاف من الغرباء. أشير بيدى إلى ناحية صدرى ثم إلى الارض. أفهمه أنى من تلك الناحية.

ينزل الرجل من على السلم الذى يتلوى كثعبان ويستدير مع استدارة حافة السور. فيصنع مع النهر موانئ صغيرة. أنظر إليه فلا أرى إلا ساقيه مغطاه بسروال طويل، وصوت تكسر الصدفات تحت قدميه أشد منه تحت قدميَ.

تسكن تماماً أصوات الضفادع. وتكف أمواج النهر عن الحفيف. وتظل تهرب إلى الشمال. اتذكرنى فى حجر المرأة التى كانت تحكى لى حكايات الليل حتى أنام. أخاف من ساق الماعز التى سيكشف عنها الرجل الذى هو فى الحقيقة عفريت فجأة، ليباغتنى، ويقذف بى إلى النهر.

تنادينى من الطرف الآخر للنهر. لا أقوى على الحركة. أخاف أن يقذف بى. أنشب أظافرى فى الطين. والتخدر يسرى فى جسدى الممدّ على الطين.

أنادى على الصياد دونما صوت. يساومنى. أنقلك إلى الضفة الأخرى ولكن لا ضمان. المركب صغير ومتهالك وهو بيت أسرتى وقد تغرق. ساعتها أرميك الى النهر.

تظل تنادينى. تلوح باليد اليمنى. أرى أصابعها الرقيقة وبها خاتمى. أود لو ألامسها. وأضع قبلتى على ظهر كفها الناعم. أنظر الى الكوبرى العتيق فاجد المسافة بينى وبينه بعيدة. ومحال أن يسعفنى الوقت لأصل إليه.. أتمنى أن أصبح ضفدعًا لاختبئ فى حواف النهر. أمسك بالشباك القديمة. تهرب الاسماك أمامى. تنقنق الضفادع فى عزف متصل. أظنه تحية للسلامة.

أشعر بالماء باردًا ولذيذًا على جسدى. أقطع الحبال. يضربنى الصياد بالمجداف. أنظر الى ساق الماعز. أجد الرجل ممددًا على الطين مكانى. أود أن أقبل شفتيها لأغير طعم الماء فى فمى. افتح عيناى على أقصى اتساع فلا اراها. وارى جثتى طافية على النهر وسارحة ناحية الشمال.



الدمية هناك ..



واقفـــاً هناك وعينىَ تلتهمان المنظر ببرود. كانت صرخاته تتردد فى الفضاء المحدود المحيط بنا، ولكنى كنت أحمل فى صدرى أشياء منسية.

تركته يصرخ ويزداد صراخه. عله يوقظ تلك الأشياء القديمة. شعرت أننى أعرفه، أو أن ذلك الذى يحدث الآن بالضبط قد حدث من قبل.

كنت تائهاً، أشعر بأبخرة الزمن القديم تتصاعد من حولى. تغلف كل شىء يحيط بى. ظلت دموعه والنظرات المتأملة المطلة من عينيه تستنجد بى.

كنت أرغب في سؤاله عن شخصيته. علني أدرك الأشياء التائهة في الزمن.

أمسك بقضبان النافذة الصغيرة بالباب، وأخذ يهزها ويصرخ. يطلب النجدة.

شعرت أنه سيموت إذا لم ينقذه أحد.

كنت والحارس في قيد واحد. سمعت الصرخات. شعرت أن من واجبي أن أنقذه. ضربت الحارس وأطلقت يدى، وأخذت أجرى في الأزقة وبين البيوت القديمة ذات الرائحة الخاصة في مدينتنا. إختلطت على الأمور، فقد حكى لى صديقى، أن بيوت قريتهم منحوتة في بطن الجبل، وأن أسطح بيوتهم، هى شوارع صغيرة أمام بيوت أخرى في الطوابق الأعلى، وأنك تستطيع أن تمر بالناس داخل بيوتهم عبر الطرقات الصغيرة، فتصورتنى أجرى في تلك الطرقات داخل بيوت الناس، وظل الحارس يطاردنى.

حين وصلت إليه، ظللت واقفاً خارج الباب أنظر اليه، وأشعر أننى أعرفه، ولكنى أشعر أيضًا أنه غريب عنى.

كنت كبيراً في السن. كما أنا الآن. وكان الذى يصرخ ما يزال طفلاً صغيراً جداً، كانت الخادمة قد أسالت الماء على أرض المنزل. حتى تقوم بتنظيفه، فبدى كبحيرة صغيرة. عامت الأشياء المنثورة على الأرض، ومنها لعب الطفولة.

كان صراخه يزداد. الموت يقترب منه، وعلى أن أنقذه، فأكسر الباب، وأمنع مصدر الموت، ولكن التبلد يسرى لذيذاً فى أطرافى، فأكتفى بأن أرسل إليه نظراتى المتساءلة.

قالت الخادمة للأم، وكانتا فى المطبخ: سأذهب لأرى لماذا يصرخ. قالت الأم: دعيه ينفلق، ولننهى ما فى أيدينا من عمل.

اقترب الحيوان الزاحف الصغير من قدميه، فأخذ يشهق ويصرخ: *الحقونى سيأكل قدمى. ذراعاى مشلولتان. لا أستطيع أن أرفع قدمى. الماء يغطيها. الحيوان سيأكلها. الحيوان سيأكلها.*

شعرت بأمعائى تتمزق بسبب صرخاته، وحاولت مراراً أن أنادى على أمه أو الخادمة. كنت مشلولاً أكثر منه. كانت الأم والخادمة تريان من المطبخ الماء وهو يغطى قدميه والحيوان وهو يقترب منهما، ورغم ذلك لم تباليا.

إقتربت بعينى أكثر، علنى أرى بدقة ملامح الذى يصرخ من نافذة الباب، فوجدته طفلاً، ذا عينين زجاجيتين. أخذتنى رعدة، اقتربت أكثر. تحسست برعب الجسد المشلول، فوجدته ذى ملمس وبرى كحيوان.

أجريت بصرى فى المكان، وفوق الماء الذى تطفو عليه لعب الأطفال. وجدت طفلاً هناك يلعب ساهماً بقطار صغير، يشبه طبق الأصل الذى يقف شاخصاً من نافذة الباب ويصرخ.

رددت بصرى سريعاً والخوف يقتلنى، لأرى ذى الملمس الوبرىّ، فوجدت الدمية تنظر إلىّ بعينيها الزجاجيتين.

الرغبة فى تجاوز الخطوط ..



أحـفظ كل طرقـاتهـا والزوايا الخـاصـة الضـيـقـة، على طاولات المقـاهى والبـارات حـيـث لا يعـرفك أحـد ولا تعـرف أحـد، ولكن وجــوه كل الأطـراف داخل تلك الزوايا، على الأشكال المربعـة والدائرية، ذات رائحة مألوفة.

وبينمـا أعـشق السـيـر فـيـهـا حتى نـهـايات الخطوط وأخلق من تلامس باطن قدمى بالأرض علاقـات منمـقـة، تضيق فـيـهـا المسـافـة بين نـفسى وبين الأسـفلت الناعم. يخـتـلط المشى بالسـبـاحـة فى المشاعر، فأجد بحرها يجتاحنى.

وبينما أنت تتجرع ذكريات السنوات المرة وتعيش فى وحدتك الحزينة. أنت تكرهها لأنك تصطدم دائما بأجسادهم تزاحمك فى كل خطوة. بل ويضعون أقدامهم فوق قدميك وينظرون بتحد سافر فى عينيك.

إنطق أو تطاول إذا سمحت لك اللحظة، أو لو استطعت أصلاً أن تحرك ذراعيك.

تسير بفعل دفعاتهم فتجد نفسك فى شوارع لم تكن تقصد إليها، فتلعن اليوم الذى دعاك لتخطى عتبة حجرتك.

صدقنى أنا مثلك تنتابنى دورات الاختناق تلك. أصاب فى أحيان كثيرة بشعور الدوار. أقف ملفوظاً من الزوايا الخاصة لأتقيأ كل شىء.

قدماى على الأسفلت ووجهى إلى النهر وصدرى مضغوطاً بسور الكوبرى.

اللعنة على كل شىء..

كيف يمكنك أن تشيح بوجهك أثناء حديثى إليك.

يبدو أن الأمر لا يعنيك. أنت تدرك أنه قد أصبح من المحال الاستمرار هكذا.

يجب أن نفعل شيئاً.

هكذا أنت دائماً. يستحكم إغلاق الدائرة، ويصبح الخطر حقيقياً، فتستقبل الموت كصديق قديم مللت رؤيته.

الناموسة اللعينة لا تتركني لحالي سواء ذهبت في النوم أو جلست لأكتب لك. تقف هناك بسقف الحجرة، تطل بعينيها الخبيثتين ناحيتي. من طبعي أن أسرح بذهني كثيراً. يشل السكون جسدي. تظنني الغبية نائماً. تنقض كصقر الأرانب. تحوم عدة مرات حول رأسي، تتأكد من موتي. تثني ساقيها الأماميتين وترفع مؤخرتها لأعلى. تدب خرطومها في مسامي. أتركها تفعل ذلك حتى تشبع من دمي وتتخم به. أهوى فجأة بكفي وبأسرع ما أستطيع لأسحقها، تفلت مني للمرة الألف. وتحلق بعيداً.

اللعنة على كل شيء. ألحوا لأخذي معهم لنشرب البيرة هناك.

أنت تذكر المقهى الصغير المطل على النيل. كنا نسميها الحانة السوداء. الفول النابت والترمس المملح مع زجاجات مارزن الربيع، تطفئ هموم النهار.

تركتهم وانحرفت من الشارع الضيق المعتم إلى الشارع المزدحم. وضعت يدي في جيوب سروالي. وظللت أحدق بالناس. أخذت مكاني على كرسي السينما الذي اعتدته منذ ثلاثة عشر عاماً. ملت برأسي لأسمع نكات الذي يجلس في الصف بجواري.

كوب الشاى لم يكن ساخناً ومع ذلك تجرعته، مرت الأفلام الثلاثة وبطن حذاء الذى خلفى أحسها فى ظهرى. تبادلت معهم الدخان والكلام، حتى غادرنا السينما.

أؤكد لك أننى حاولت كثيراً أن أبقى على المسافات الداخلية للعلاقات الحميمة بينى وبين خطوطها الممتدة، وتلك اللمعة السوداء المنمقة ذات العبق الخاص، ولكنى شعرت بالاستحالة.

اللعنة على كل شيء، أنت تعرف أنه لابد من حل، لابد أن نفعل شيئاً.

يظل الكلب واقفاً تحت شرفتى طيلة الليل ينبح. يحرمنى من النوم. أسد أذنى، أفتح الشرفة، أقذفه بأى شيء. يواجهنى بنظرته المتحدية.

لتفعل شيئاً. فأنا أتمدد هنا على فراشى فى سكون قاتل. مرت قرون وجسدى ساكن يتحلل. تكاد الملعونة تمتص دمى لآخر قطرة. أسألك ويجب أن ترد. الآن وفوراً.

عليك أن تسرع بالإجابة. إنه يربض على صدرى. يطوق رقبتى. ينبح بأعلى صوت. أسرع. تثنى ساقيها الأماميتين. أشعر بها تحت المسام. قد ينقطع الحديث بيننا.

اللعنة عليك. أتذكرك. أرغب فى رشفة من مارزن الربيع.

تحت الدفتر ..



الحلقات المتداخلة كثيرة. الأركان معتمة والدرج ثقيل. الحوائط الكالحة تختلط فيها ألوان الموت الأصفر المكروه وسواد المراحيض العمومية ورائحتها النفاذة.

على البوابة الخارجية العملاقة آلاف من البشر تدخل وتخرج منحشرة فى بعضها البعض والكل فى حالة من الجهامة، والأكتاف تتصارع لتنفذ من ممر ضيق صنعته عساكر من صفيح تنظر للناس بلا مبالاه..

فى الساحة الممتدة بإتجاه ميدان التحرير تختلط أصوات الباعة الجائلين بباعة المشروبات المثلجة. ويحتل مصورى الفوتوغرافيا بآلاتهم العتيقة والشكاوى والطلبات مواقع بارزة أمام هذا البناء العجيب.

أمسكت بالدفتر الأخضر وبه صورتي ويخصني وحاولت أن أتجاوز الحشر وعساكر الصفيح، رفعت رأسي لأعلى عل أنفي يلتقط بعض الهواء. تضاربت المؤخرات مع المقدمات.

قفزت على الدرج الثقيل وتجاوزت الممر.

استوقفني الرجل الذى غطت وجهه آثار الجدرى وتسيّد أنفه على بقية ملامحه، ومن طرف عينيه الضيقتين، أخذ يهلفط وتلاعبت أذنيه وشفتيه فى غير تناسق. أكد الرجل على أن النظم حديثة ومعقدة وأن الحلقات المتداخلة كثيرة وأن تفتيح العين والمخ على أقصى اتساع يعنى النباهة. ضاقت روح الرجل وأمسك بشخصين آخرين وأعاد ذات الكلمات على ثلاثتنا. الزحام يضربنا جيئة وذهاباً.

أفلتُ من الأنف الكبير. الوقت يمر. فى الثانية عشر تغلق كل الشبابيك والخزائن. انزلقت إلى حجرته، نظر فى عينيّ بسحنته الصفراء ومط شفتيه لأسفل وضيق عينيه من خلف مكتب معدنى كالح، وخلفه آثار قيشانى على الحائط وجزء بارز من ماسورة لحنفية مياه وحوض تمت إزالتهما.

أمسك دفترى والكراهية تعتصر وجهه. فر صفحاته. ضيق عينيه. قذف به بعيداً. أنهال بالختم فى يده يضرب ويدق أوراق الآخرين.

أكد الأنف الكبير فى نهاية الممر أن صفحات الدفتر كانت خالية من المعلوم. دفع بى إلى آخر يمكنه أن ينهى كل شىء. أمسكت بالنقود القليلة فى يدى ولم أجرؤ على أن أمد ذراعى.

وقفت مرتبكاً أمامه. التفت برأسه بطريقة مسرحية. وظل مركزاً عينيه إلى أسفل فوق دفتره الكبير.

نظر إلى عاتباً فى لوعة، ومن بين شفتيه أصدر صوتاً رقيقاً مخنثاً وقال: تحت الدفتر. لم أفهم.

صاح بأعلى صوته: قلت لك تحت الدفتر. اضطربت حركة الواقفين وأخذوا يأخرون أقدامهم وتنحوا عن المكتب حتى التصقوا بالحائط. ارتبكت لغبائى، ثم وجسدى يهتز مددت يدى تحت دفتره. رفعه ونظر. أدرك بخبرته حجم النقود. أمسك دفترى وقلب الصفحات. تلون كالحرباء. أين الكارت الأصفر؟

وبتشفى : هكذا لن يمكنك أن تسافر . . ولكنى وحيد لا أخوة لى .

فتح فمه : إثبت ذلك .

وأشار بيده ناحية الحائط . . إللى بعده .

أدركت صعوبة الإثبات ، وأن الحلقات كثيرة متداخلة وأن تجاوز الخطوط وعساكر الصفيح المنصوبة فى ثنايا المكان والزحام أمر محال .

عدت بقدمين ثقيلتين بإتجاه الدرج ، أتلمس طريقى فى الأركان المعتمة . تمس كفى الحائط القبيح وتغزونى رائحة المراحيض التى تسيطر على البناء .

البلـدوزر ..



للمرة الثالثة خلال سنوات قليلة يتحطم قلب حسين المصرى على تهدم ما صنع، وللمرة الثالثة يحدث ما يحدث له وكأنه مفاجأة جديدة يراها لأول مرة، رغم أنها المرة الثالثة.

جلس فوق الأنقاض يبحث بعينيه عن شىء ما مما وضع فيه تلك اللمسات الخاصة جداً، أشياؤه العزيزة التى ظل ينسج فيها أياماً بلياليها، بحب يتجاوز حبه لأطفاله. ظل يفكر حتى أنه أحس بيده تتحرك كما كانت تتحرك وهو يبنى حوائط المكان ويصُف الحجارة فوق بعضها، وبيده وهى تمسك الفرشاة لتخلق عالماً من الألوان والبهجة داخل المكان.

رق قلبه حتى أنه تذكر المرة الأولى ...

أنصت بأذنه وهو يتذكر المرة الأولى، فسمع صوتاً يقارب الزلزال يتقدم من بعيد. أدرك أن شيئاً ما غير عادى مقبل نحوه، وأنه يقصده بالذات دون البشر المحيطين به.

الصوت يتقدم، وطنينه الأسطورى يزداد، وقلب حسين المصرى ينخلع لإدراكه أنه يقصده بالذات، لدرجة أن الأرض كانت تهتز من تحته، ولم يدرك كنه هذا الاهتزاز الأرضى. هل يسببه ذلك الكائن الرعدى المتقدم، الذى يدك أرض الأسفلت بثقة من يعتقد أن لا أحد غيره على الأرض، أم أن فرائصه هو التى ترتعد من الخوف؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، وكان اليوم هو الرابع عشر من شهر يناير، وكان القمر مطلاً على الأرض بابتسامة عريضة.

رغم ذلك، ولأن حسين المصرى كان يقف على باب المكان ليتعرف على مصدر الصوت، فإنه رأى عمارة ضخمة تتحرك ببطء ورتابة نحوه، وتدك الأرض دكاً يصم الآذان ويبدو كقرع الطبول الإفريقية، وبدت وكأنها سحابة سوداء كثيفة، نجحت فى أن تحجب ابتسامة القمر.

شعر حسين المصرى أنه يقف وحده فى ظلام ما بعد منتصف الليل قبالة ذلك الكائن الغريب الذى يملك هذا الصوت المخيف ويستطيع بعملقته أن ينشر الظلام على كل المكان، لدرجة أن المدينة بدت وكأنها قد اختفت هرباً ولم يعد يظهر منها أى بناء. كل المنازل بعد أن كانت تتبادل الإبتسام مع القمر تحولت إلى أقزام. وكادت تتساوى بالأرض.

فى تلك اللحظة، والتى كانت الأولى من نوعها فى حياة حسين المصرى والتى كان من الممكن له أن يتخيلها ولكنه لا يمكنه توقع أن تحدث له شخصياً... وبشكل مباغت.

إنقض البلدوزر على البناء الذى ظل حسين المصرى سنوات، ليل نهار يبنى فيه بدأب وحب أكثر مما كان يحمله لأطفاله. بكلابات الحديد ذات الأظافر الصلبة والجسد المصفح المهول، أخذ البلدوزر يمزع حوائط البناء، وهى تئن من قساوة الأظافر. امتدت أذرعه لتنقب عن كل شيء جميل فيه لتبتلعه داخل بئر البلدوزر. أخذت اللوحات والأوراق والألوان والفرشاة، وكل الزوايا الجميلة الخاصة ومزقت البناء بكراهية سوداء لجمال البناء الأزرق الرائق، والحوائط والأركان الدافئة التى تحوى روح حسين فى جزئياتها.

وقف حسين المصرى مأخوذاً وتجمدت أنفاسه فى صدره، حتى أن أسئلة دارت بذهنه مثل : من إنت؟ ولماذا تفعل ذلك؟ لم يستطع أن ينطقها، بل إنساق تائهاً مع لحظة الدهشة.

عاشت المدينة تسعة شهور فى لحظة ما بعد منتصف الليل، ولم يجرؤ القمر على أن يبتسم إبتسامته العريضة طيلة تسعة شهور، ولم تستطع الشمس أن تظهر فوق المدينة، وظل الناس منكمشين في بيوتهم القزمة، يعيشون تحت الأسرة، منبطحين على بطونهم طوال تلك الفترة... بل أن الزرع الكائن بضواحى المدينة قد أجدب ولم يعد ذى لون أخضر.

حين عاد حسين المصرى من غيبوبته التى استمرت تسعة أشهر، شرع فوراً فى التقاط الحجارة من على الأرض وأخذ يسوى حوافها ويصفها فوق بعضها ليصنع حوائط جديدة.

فى تلك اللحظات أطل بعض الناس من بيوت المدينة والتى كانت قد اختفوا وقد علت وجوههم ألوان الصدأ الأصفر من الرطوبة المظلمة فى أقبية روحهم وإنثنت ظهورهم وتهدلت حركة سيقانهم من كثرة الركون تحت الأسرة. رأوا حسين المصرى يعيد

بناء بيته من جديد، فخرجوا من أبواب بيوتهم وأخذوا يتجادلون ويرددون مع بعضهم أن بيت حسين المصرى الأول، كان أجمل البيوت فهو أخ للقمر على الأرض، ولولا أنه كان أجملها ولولا أن حسين قد بذل فيه نصف قرن من الزمان ليبنيه، لما جاء البلدوزر الأعمى وفعل به ما فعل..

وتضاربت أقوال الناس، فيما إذا كان على حسين المصرى أن يبنى بيتاً ثانياً رائعاً ولكن متواضعاً كبيوتهم، حتى لا ينتبه له البلدوزر ويأتى عليه مرة ثانية.

ولكن حسين المصرى بشروعه فى البناء مرة ثانية وبهمته العالية قطع كل طريق للجدل بين الناس، حتى أن بعض شباب الناس قد جاءوا لمساعدته في صف الحجارة فوق بعضها على الرغم من تحذير البعض بأن من يساعد حسين المصرى فى بناء بيته، سيجعل البلدوزر يضع عينه على بيته هو الآخر وربما يتوجه اليه يوماً ما ليهدمه.

مرت الشهور بلياليها الطويلة، والشمس والقمر يتناوبان الإبتسام في وجه حسين المصرى، بينمل جاء الناس من المدينة لتصف الحجارة وتلعب بالألوان على حوائط المكان مع حسين المصرى.

وفى صباح اليوم الثلاثين من الشهر التاسع من بداية حسين المصرى فى بناء بيته الثانى، خرج الناس من بيوتهم القزمة ليجدوا حسين المصرى قد شيد بيتاً لم تره عيونهم من قبل. أخذ البيت بجماله أرواح الناس، فقفز الناس يرقصون فى الشوارع ويصنعون دوائر ومربعات ويملأونها بالغناء، وامتلأت بيوت المدينة بأفراح الزفاف الجماعية التى تأجلت منذ قرن مضى، حتى الحيوانات فى المدينة أصاب أرواحها فرح الناس وغنائهم الجماعى، فأخذت الحيوانات ترقص نهاراً وتتزاوج ليلاً.

فى اليوم السادس بعد اليوم الثلاثين من الشهر التاسع لبداية بناء حسين المصرى لبيته الثانى، وبالضبط فى الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، انطلق الصوت الذى يدك أسفلت شوارع المدينة، ليرعد، ويهزم النفوس، ويجعل جميع من كانوا يرقصون فى شوارع المدينة بالأمس ينبطحون تحت الأسرة فى منازلهم القزمة على بطونهم، ويخرج حسين المصرى ليقف على باب بيته ذاهلاً يبحث عن ابتسامة القمر وعن القمر، فيجد كليهما مختفيين،

فيلتفت برأسه ناحية المدينة ويبحث بعينيه عن بيوت الناس، فيجد السحابة السوداء الزاحفة على الأسفلت قد عتمت كل شيء وطمسته، والبيوت صارت أكثر قزمية حتى كادت تتساوى بالأرض وتبدو وكأنها أشباح نتوءات.

سرح حسين المصرى بذهنه بعيداً، وأخذ يعتقد أن العلاقة بينه وبين البلدوزر، علاقة قدرية، لا فكاك له أو للبلدوزر منها. لا هو بقادر أن يكف عن البناء ولا البلدوزر بقادر أن يتوقف عن الهدم، وأدرك أن هذا الأمر يخصه وحده دون سائر سكان المدينة، وشعر بأنه قد بدأ يألف البلدوزر وبدأت تخف حدة خوفه منه، حتى أنه فى تلك المرة نظر فى عيون البلدوزر، فأدرك أنه يدرك ما يدور بخياله، لدرجة أن البلدوزر قد دارى عيونه على إستحياء من سرحة عيون حسين المصرى فيه، ولكنه على الفور وعلى عكس ما بدى فى عيونه بدأ فى هدم البيت الثانى لحسين المصرى.

عاشت المدينة تسعة شهور فى لحظة ما بعد منتصف الليل ولم يجرؤ القمر على الإبتسام ولم تجرؤ الشمس على فتح عينيها طيلة التسع شهور، وظل الناس منبطحين على بطونهم تحت الأسرة داخل بيوتهم القزمة.

أدرك كل الناس أن حسين المصرى إذا عاد من غيبوبته هذه المرة فإنه سيتعلم دروساً مستفادة من أفعال البلدوزر وأنه لن يجرؤ على الشروع فى بناء بيت ثالث، بل إنه قد يترك المدينة للبلدوزر ويبنى بيتاً متواضعاً على الساحل، ويعيش فيه محزوناً حتى الموت.

ولكن حسين المصرى لم يكن يملك أن يكف عن البناء، ولا يستطيع أن يتخيل أن يعيش فى بيت متواضع، ولا كان بمتصور أن يترك حلمه بأن يعيش فى أجمل بيت بالدنيا.

تصور حسين المصرى أنه قد أدرك كيف يمنع البلدوزر من هدم بيته، فقرر أن يبنى سوراً ضخماً يدور حول بيته ويمنع البلدوزر من الوصول إليه.

أطل حسين المصرى على مدينة الأقزام بتقزز وكراهية. رفض أى مساعدة من أحد، رغم أن الذين تجرأوا على مساعدته هذه المرة كانوا أكثر من سابقيها، وبدأ يبنى السور حوله حتى أنه اختفى يوماً خلف السور، ولم تعد الناس تراه، أو ترى ماذا يفعل وظل على ذلك شهوراً وسنين، والناس لا ترى إلا سوراً لا تعرف ما الذى يحدث خلفه حتى أن الناس تصورت أن حسين المصرى فى

هذه المرة قد تخلى فعلاً عن فكرة بناء بيت جديد، وأنه ما بنى إلا سوراً، وإنزوى خلفه بعيداً عن الناس والمدينة.

ولكن وللمرة الثالثة خلال سنوات قليلة يتحطم قلب حسين المصرى، على تهدم ما صنع، وللمرة الثالثة يحدث له ما يحدث فى كل مرة، وكأنها مفاجأة جديدة، يراها لأول مرة، رغم أنها المرة الثالثة.

جلس حسين المصرى فوق الأنقاض، وهو ينظر خلف السحابة السوداء الغاربة، وهى تدك الأرض دكاً، منسحبة عبر طريق الأسفلت من المدينة والساعة قد قاربت الخامسة من صباح اليوم التالى.

وأخذ يلعب بكف يده اليمنى فى الهواء وكأنه يزيح طيراً من على وجهه، ثم فرد أصابعه الخمسة فى وجه القمر، ومد كفه للأمام قدر ما يستطيع ذراعه، كأنه يدفع الغمامة السوداء خارج بوابات المدينة.

رسم حسين المصرى على الأرض رسومات كثيرة تراها من بعيد فتبدو كأنها خريطة لشوارع وبيوت المدينة، ثم وقف بقامته المديدة وبدى أطول مما كان عليه فى الأيام السابقة، وتحرك

بخطوات بطيئة ناحية المدينة ببيوتها القزمة، وكان قد اتخذ قراراً لا يعرف به أحد.

ربض البلدوزر على باب المدينة مسلطاً كل عيونه عليها، وهو يعلم علم اليقين، أن القمر طوال تسع شهور سيكف عن الإبتسام، وأن الشمس ستفر من الظهور أمام الناس، وأن الناس ستنبطح على بطونها تحت الأسرة فى منازلها القزمة وأن حسين المصرى سيروح فى غيبوبته حزناً على آخر بيت دكه البلدوزر.

لكن حسين المصرى لم يتوقف عن الحركة. لم يترك بيتاً أو حجراً أو إنساناً أو حيواناً فى المدينة إلا وأودعه سراً. حتى أن الزهور التى تحدث إليها أودعها سراً. بل أنه قد صنع سلماً وصل به إلى القمر وباح فى أذنه بالسر، وطلب منه أن يخبر الشمس.

وعلى عكس يقين البلدوزر، أضاء القمر المدينة بالليل خفية. لكنما دون إبتسامة هذه المرة، فلم يكن لديه وقت للإبتسام. لم تنبطح الناس على بطونها تحت الأسرة. بل أخذ الجميع يصفون حجارة كثيرة فوق بعضها فى كل الأماكن، وأخذ النمل يحفر أخاديد عميقة كثيرة على طريق أسفلت المدينة، بل أن الأطفال

أخذت تنصب الفخاخ فى كل الطرقات، وأخذ الشباب يقطعون الأشجار القوية، ويحزمون بها البيوت وكل المدينة.

وفى اليوم الثلاثين من الشهر التاسع من يوم هدم البلدوزر للبيت الثالث لحسين المصرى، طلعت الشمس والقمر متجاورين فى أبهى زينة وأعرض ابتسامة تراها الدنيا وإنقشعت غمامة الشهور الفائتة، لتبين عن ألف ألف بيت من أجمل بيوت الدنيا، وعن ألف ألف رجل وامرأة وفتاة وطفل فى أحلى الملابس وأكثرها زينة، وعلى باب المدينة، وقف البلدوزر، يدير محركاته، ويغلى مراجله، ويبرُد أظافره الصلبة، ويسوى دروعه فى انتظار أن تحل الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، وطال انتظار البلدوزر، لأن الليل لم يأت وصدأت مراجل البلدوزر، فتعطل.. وحتى الآن ما زال واقفاً على باب المدينة، والأطفال تلعب عليه وتركبه، لأن الليل لم يأت منذ ذلك الحين..



كسر الرجال ..



جلست محشوراً وسط خمسين رجلا محشورين فى غرفة واحدة داخل سجن الترحيلة فى الدور الارضى. أبخرة العرق والالتصاق الاجبارى ودورة المياه الملحقة بالغرفة التى بلا باب يسترها أو يمنع الروائح. الساعات والأيام ثقيلة. المحن تصنع الرجال، الجلد والقسوة والغضب ملامح تطفو على وجوه الجميع. الوجوم والترقب لأى شئ وتوقع الغدر اذا فتح باب الزنزانة أكبر من توقع الفرج.

مجرد الانحناء أو التململ مشكلة لابد أن يسبقها تمهيد. إراحة الظهر أو مد الساقين قد يتحول إلى معركة، ولكنها لحسن الحظ كلامية.

لم يكن هناك رجلا من الخمسين يملك رفاهية التقاتل بالأيدى، أو الشكوى بصوت عالٍ، أو إذا أردنا المبالغة لا يمكن الصياح على الحرس أو تحديهم بأى صورة من الصور. كان البديل أو العقاب أن يتم نقلك من الدور الارضى إلى الدور الأعلى حيث عنبر الموت، هكذا كانت شهرته.

فى العنبر وحده قرابة ربعمائة رجليمارسون كل أشكال الشذوذ والاغتصاب والسرقة والبلطجة واستعمال النصال الصغيرة والكبيرة ورواج المخدرات بكل أنواعها.

كان رعب الرجال وإنكسارهم أن توَّقع عليهم عقوبة النقل إلى عنبر الرعب نظير أى هفوة. كان على كل رجل فى الدور الارضى أن يدفع المعلوم للحرس نظير بقاءه بين هذه النوعية من المجرمين الافاضل المقيمين بالدور الارضى.

كنت المحامى الوحيد المتهم فى قضية سياسية الذى تواجد بين هؤلاء الرجال، مما جعلنى أحظى بقدر من المكانة والحماية بين مجرمين مميزين فى زنزانة الدور الارضى. تحولت إلى الفتوى والاجابة على أسئلتهم جميعًا حول أوضاعهم القانونية وتمتعت

بحظوة النوم والجلوس على المصطبة في ركن الزنزانة، وتم ترتيب دور لكل متهم منهم لمناقشته في قضيته. بعد عدة أيام تمت ترقيتي إلى المصطبة البعيدة عن مدخل دورة المياه.

يقع سجن الترحيلة في حي الخليفة أسفل طريق منحدر من قلعة صلاح الدين حيث سجن القلعة والذي دارت شهرته باسم «الهيلتون» حيث سيطرت عليه دائمًا مباحث أمن الدولة وكان دائمًا مسرحًا لعمليات التعذيب المتخصصة ورفيعة المستوى للسياسيين.

في ظهيرة أحد الايام انفتح باب الزنزانة ليدخل خمسة رجال ذوو بنية قوية ووجوه قاسية مهابة، يتقدمهم رجل كبير السن يرتدي جلبابًا رماديًا وعليه عباءة سوداء. الخمسة رجال كانوا كأنهم كتلة واحدة. يحملون ذات الملامح ولهم ذات البنية، ولكل منهم شارب كث وكثيف ممتد على الجوانب وغير ممشط. أغلق الباب عليهم، فأخذوا يتطلعون في المكان والوجوه. جفلت الاجساد المحشورة في الزنزانة وباتت العيون تترقب نذر غيوم عراك ما، إلا أن الرجال الاربعة خلف الشيخ المهيب، استأذنوا في أدب جم لا صلة له بالنظرة في عيونهم ولا بالانطباعات التي

أحدثتها كتلة العضلات والملامح القاسية. أن يجلس الشيخ بطريقة لائقة. انفكت الاسارير وبان فى الحال أنهم أسرة واحدة وأن الرجل كبيرهم.

تطوع الجميع فى تقديم خدمات الاستقبال للوارد الجديد. خرجت السجائر والعصائر وانفتحت أكياس وحقائب بها اطعمة متنوعة. لم تمتد أيدى الرجال للطعام أو العصائر أو السجائر. ألح أصحاب الزنزانة، قدامى المقيمين على القيام بالواجب، وتمسك الرجال الخمسة بالاعتذار وشكر الآخرين. بعد مرور عدة ساعات، أصبح الجميع وكأنهم أهل ويعرفون بعضهم البعض منذ زمن وتبين أن الشيخ وأولاده الاربعة لم يذوقوا الطعام منذ ثلاثة أيام.

أخذت أنظر للضيوف الجدد وأنا أتطلع إلى ملامحهم وأفتش فى الذاكرة عن هذه الوجوه وخاصة وجه كبيرهم. متأكداً أن هذا الوجه محفور فى ذاكرتى لسبب ما. أصغر أبناء الشيخ الكبير توجه ناحيتى بطريقة مباغتة وقال: ألا تتذكرنى؟ قلت نعم أعرف وجهك جيداً ووجه كبيركم ولكن الذاكرة متعثرة.

إنفتحت بوابات الذاكرة وحلقت بعيداً، إلى الاسكندرية شاطئ ميامى والصخرة وبئر مسعود، ننزلق من أسرّتنا صباحًا بعد افطار سريع جريًا إلى رمال الشاطئ، لنحصل على أفضل شمسية من حارس الشاطئ، على المياة مباشرة وفى مواجهة الصخرة. ليبدأ يوم لا ينتهى من السباحة والتقافز فى المياةومغامرات التسابق إلى الصخرة وبناء القصور والاشكال على الرمال. مع اقتراب الغروب ننطلق ناحية بئر مسعود لنقفز فيه ونمتع الجمهور بالقفز فوق الامواج الهائلة التى تضرب الصخرة المطلة على البحر وتحدث فى المسافة بين المجرى وفوهة بئر مسعود أصوات شهيق وزفير لعملاق يتنفس وينفث رذاذًا وأمطاراً على النظارة والعشاق القابعين فى رومانسية أمام البحر، مسحورين بقرص الشمس الأحمر الذى يغرق فى البحر على مدى البصر.

على امتداد الشاطئ من أبو قير حتى قلعة قايتباى كانت الاسكندرية تتمدد كامرأة فاتنة يتلوى جسدها مع التفافات خط البحر، وتسجى رأسها على الرمال لتلعب بشعرها الامواج جيئة وذهاباً.

كان قبيصى وإخوته فتوات منطقة سينما المنتزة. حيث مطعم البورصة وأفضل وجبات الاسماك وخاصة القراميط والمياس،

وفطائر محلات الامور والزلابية الساخنة. كنا نلعب الكورة فى الساحة التى تقع خلف كبائن بئر مسعود، وفى المساء نتسكع حول الامور وسينما المنتزة. نشاكل المارة ونغازل الفتيات، وندخل السينما خلسة بعد أن يتفاوض آل قبيصى مع الرجل الذى يقطع التذاكر، وفى كثير من الاحيان بفضل القبيصية كنا نأكل الزلابية ونأخذ فصوص المانجو وأكياس الفيشار دون أن ندفع شيئًا.

كان القبيصى الكبير يملك أهم مقهى فى شارع خالد بن الوليد أمام سينما المنتزة، يجلس على دكة عريضة مغطاة بكليم مصنوع يدويًا، ويعتم عمامة ملفوفة على رأسه على طريقة أهل الصعيد لكنها ضخمة وتشبه عمائم قبائل الطوارق فى الصحراء الغربية.

كان قليل الكلام ولكن كلمته كالسيف، يفتح فمه بما قل ودل وتتحرك شواربه الضخمة لتصنع آداءًا دراميًا مع تجاعيد الوجه والسمرة النحاسية والعين الثاقبة. تجعل كلماته أوامر لاتقبل الرد أو التعليق.

دارت أكواب الشاى الزجاجية والمعدنية فى الزنزانة وأعطيت أفضلها للشيخ الكبير، إنسابت الكلمات وتداعى الحشد المحشور

في مقتطفات الذكريات، وزادت الهمهمات والغمغمة. حين تنحنح الشيخ الكبير وبدا أنه سيتكلم، ساد الصمت وشخصت الابصار ناحية فمه وشاربه العملاق.

في صوت رزين ذى قرار عميق ولهجة صعيدية غير مألوفة للقاهريين ولا علاقة لها بالدارج في المسلسلات التليفزيونية والافلام.

لم يقبل المعلم قبيصى القادم من عمق سوهاج منذ ربع قرن والذى أنشأ أبناءه على الكرامة والاعتزاز بالنفس، وأن كلمة الرجل مثل ميزان الذهب، لا تقبل الغش أو اللوع، ولم يعرف الخوف يومًا فى حياته ويكره الخنوع والمذلة، لم يقبل الخضوع لأساليب مأمور قسم المنتزة، لم يتزلف ويمسح الجوخ، ولم يقدم البرطلة والنفحات للمخبرين، لم يتجاوز الادب والاحترام ابداً، ولكنه تصرف دائمًا ككبير صلب كحجر صوان لا ينثنى ولا ينكسر.

حار المأمور فى شأن القبيصى وأولاده وعجز ضابط المباحث عن كسر شوكتهم، تم حياكة خطة بأن يجلس بعض المسجلين خطر على مقهى القبيصى ليدخنوا الحشيش.

وانقضت العساكر والمخبرين على المقهى، وبينما المأمور يقبض على المعلم القبيصى تصدى له أبناؤه الاربعة، وقبض على الجميع.

اقيم حفل استقبال للقبيصى الكبير واولاده بقسم المنتزة وتبادل الضباط والعساكر والمخبرين توجيه الاهانات الخفية والاذلال للرجال. دُبجت الاوراق وسُطرت الدفاتر وامتلئت بالتهم، من تعاطى المخدرات لمقاومة السلطات.

ادعت الاوراق عدم معرفة السلطات لمحل اقامة الرجال الخمسة، وضرورة الاستعلام عما اذا كانت لهم سوابق جنائية.

صدر القرار بعرضهم على كافة مديريات الأمن والاقسام، وبدأ ترحيلهم مكبلين بالقيود والسلاسل. استغرقت الرحلة شهراً كاملا فى قطار البضائع من الاسكندرية الى سوهاج والعودة حتى القاهرة.

ذاق الرجال الذل فى أقسام الشرطة وسجون الترحيلة. لا ظهر لهم ولا سند، لا طعام آدمى ولا شربة ماء. لم يكن الرجل الكبير يملك إلا كرامته، وتحلق الاربعة كالسوار على المعصم حول ابيهم، لدرء الهوام وذباب البشر حتى لا تمسه، رشف القبيصى الكبير

ثمالة كوب الشاى الثقيل ظلت أفواه المستمعين فاغرة والابصار متعلقة بالوجه الذى قُد من صوان، تداخلت مشاعر الالم والغضب، وانطبعت ملامح وقسمات وجه القبيصى الكبير على وجوه الجميع.

بطل الجمهورية ..



كان حسونة قصيراً وقوى البنية. اذا رأيته عن بعد رأيت كتلة من العضلات تتدحرج على الطريق. فهو يملك بنية مصارع.

يسكن فى بدروم عمارة ارستقراطية تأخذ ناصية على النيل من ناحية كوبرى الملك الصالح.

فى الصباح يخرج من باب العمارة متوجهًا إلى عمله بالسكة الحديد مرتديًا ملابسًا نظيفة تم كيها بعناية. نظافة ملابسه أهم واجبات زوجته الصغيرة.

معروف فى الحى كله ويختلط بالشباب والكبار. وهو فتوة من نوع خاص. حماية لأهل المنطقة من أى مغير أجنبى. يعشق

الإباحية فى الحديث، والنكات الحارة الساخنة وخاصة فيما يتعلق بالحديث عن النساء.

من باب تفتيح الارزاق يتعامل بأدب شديد مع البكوات وأولاد الذوات. علاقات عامة. يخدم فى الكبيرة والصغيرة. فى السكة الحديد سعى دائماً للاختلاط بكبار موظفيها وضباطها. وبإتجاه البحث عن دخل اضافى إنضم لنادى السكة الحديد. طالباً الإشتراك فى أى فريق رياضى. لأن فى ذلك علاوة معقولة وأجازات كثيرة.

كان حسونة اذا اشتبك فى أى معركة يسدد قبضات يده إلى وجه الخصم متخذاً وضع الملاكمين ومقلداً محمد على كلاى. وسواء لأنه قصير أو لأنه يريد أن يظهر بصورة المحترفين كان يقفز ويدور حول الخصم ما يفعل كلاى. مسدداً مجموعة ضربات متتالية، يمين شمال. مستقيمة. يسقط الشخص على الارض. ثم يلقى الشخص دفعة من السباب . يجلس بعدها حسونة على المقهى فى ميدان الروضة ليدور السامر حول فتونة حسونه وقوته

ومهاراته الرياضية. ويضيف حسونة فى معرض الحديث أنه يستعد لبطولة الجمهورية فى الملاكمة وأن هناك الكثير من النوادى تسعى إليه وتطارده ليلعب بإسمها.

وجد حسونة أن نادى السكة الحديد، لا يرتاده كبار الموظفين والبكوات وأن أعضاءه مثله على الحديدة. أدرك أنه لن يكون له مستقبل فى ذلك المكان. حسونة الذى اتسعت دائرة علاقاته بين ضباط شرطة وضباط فى الجيش وبكوات حىّ الروضة. قرر أن يخدم نفسه ولكن على طريقته. حصل على موعد مع مدير الأمن لأمر هام. وفى مديرية الأمن آدار الحديث فى البداية بالاشارة إلى محل سكنه على النيل وبإعتباره من أسرة كانت عريقة ولكن الحراسات ....

أثناء اللقاء قام اللواء بالاتصال بأصدقائه.

إنتهى اللقاء وخرج حسونة من المديرية يكاد يطير من الفرح. علاقات وفلوس. تم قيد حسونة لاعبًا بالفريق الأول بنادى الشرطة الرياضى.

لم تمر بذهن حسونة مطلقًا حلبة الملاكمة. الأمر فى ذهنه لم يتجاوز العلاقات بالضباط والخدمات والصلات الجديدة وكارنيه نادى الشرطة، يدخل ويخرج جنبًا إلى جنب مع اللواءات والكبار وتعظيم سلام من الحرس. والجلوس إلى الشلة فى المقهى ليحكى عن لقاءه بمدير الأمن. ويمر فى طريقه إلى المقهى بنقطة المنيل ليسلم على الضباط ويبدأ التعارف بإعتباره يمثل مصر فى الملاكمة ويلعب بالفريق الأول لنادى الشرطة. وأهمية أن يمر المخبرين بالمقهى ويضربون تعظيم سلام لحسونة بك بطل مصر والشرطة.

أبلة زينب مدرسة اللغة العربية فاجآتنى فى الصباح فى يوم نكد، وأشارت لى بإصبعها. كانت أول مرة طوال العام تتحدث معى مباشرة قالت: بلغ والدك من أول الشهر ستأخذ درسًا عندى بمنزلى. الشهادة الابتدائية تحتاج للدروس.

عدت إلى البيت عدواً وكأن كلبًا مسعوراً يطاردنى. كيف أذهب بقدمى إلى هذه المرأة القاسية فى بيتها بعد المدرسة، لأجلس اليها وحدى لتعلمنى وتأدبنى وتسرق منى وقت اللعب مع الاصدقاء فى الشارع.

اننى انتظر كل يوم ليضرب جرس المدرسة لأنطلق وأتحرر من الرعب الذى تشيعه فى حصتها. كيف لى أن ألتقيها مرتين فى اليوم.

لم يحتمل أبى خبر أنها تطلب إثنا عشر جنيهًا مقدمًا كل شهر. وإزاء رعبى وإنهيارى رق قلبه وطمأننى بإستحالة أن آخذ درسًا عندها.

وقرر عدم ذهابى للمدرسة حتى نهاية الاسبوع، خوفًا من اضطهادى وحتى يتدبر الأمر.

التقى أبى مع حسونة على المقهى وحكى له حكايتى. قطع حسونة الحديث بطريقة حاسمة. ضرب الطاولة بكفه الثقيل. وقف منتصبًا وبصوت جهورى.

بنت القحبة دى أنا سأنقلها من المدرسة.

تفرغ حسونة طوال الأسبوع لخوض معركتى مع أبلة زينب. إتصل حسونة بصديقه مأمور قسم مصر القديمة والذى اتصل بصديقه مدير التعليم. تشكلت لجنة تفتيش من مديرية التعليم لزيارة المدرسة والتحقيق مع أبلة زينب.

أصر حسونة على إصطحاب المأمور فى يوم التفتيش مجاملة.

وقفت سيارة الشرطة على باب المدرسة وخرج منها المأمور فى كوكبة من صغار الضباط والعساكر، وكانت لجنة التفتيش تنتظر سيادته على البوابة.

تم استدعاء ابلة زينب إلى حجرة أبلة فوزية المعمارى الناظرة.

فتح التحقيق. وجهت اليها الاتهامات.

استغلال الاطفال وتهديدهم وفرض الجباية على آبائهم. انطلق حسونة فى خطبة عصماء وجه فيها كلماته كالمدفع الرشاش إلى أبلة فوزية وأبلة زينب. لم ينطق أحد. لجنة التفتيش اعتقدت أنه مدير الأمن لأن المأمور لم يفتح فمه وظل يهز رأسه مؤكداً على كلماته.

وأبلة فوزية ظنت أنه مدير التعليم.

انتهى اليوم بإنقلاب تاريخى فى حياتى وحياة المدرسة.

أوقفت أبلة زينب عن العمل لحين إنتهاء التحقيق والمحاكمة التأديبية. وغادرت المدرسة كسيرة وأصبحت أنا بطل المدرسة الذى لا يقهر. وعشت دور الضحية أمام الجميع.

شملت فضيحة أبلة زينب حيّ الروضة كله. وأصبحت حديث البيوت والمقاهي. فجاءة أصبحتُ مشهوراً ومعروفًا بالاسم في الحي كله، وتربع حسونة على العرش وتأكدت لدى الجميع أن الدولة كلها خلف حسونة، وأنه بطل مصر المقبل في الملاكمة. لقد أرسل وزير الداخلية شخصيًا مأمور القسم لينفذ طلبات حسونة. وكاد وزير التعليم يحضر بنفسه للمدرسة لولا ظرف طارئ.

لقد اتصل عبد الناصر بحسونة في بيته ليطمئن على تدريباته لعرش الملاكمة. لم يهدأ حيّ الروضة ولم تقف الحكايات. كبرت الحكاية. حسونة في قمة السعادة. إنه مرشح لملاقاة محمد على كلاى وعبد الناصر منشغل بتدريباته والسؤال عن صحته.

إنطلق رجال المخابرات يتنصتون في الحيّ. ظهرت وجوه غريبة على مقهى ميدان الروضة وبين الشباب الواقفين على النواصي. لقد طرح اسم عبد الناصر واتصالاته التليفونية مع حسونة.

أحد بكوات الروضة أقسم في حديقة النادى الأهلى وهو يجلس مع بعض الجنرالات أن المشير عامر قرر إعطاءه رتبة عميد.

إنطلق مندوبو الصحف والمصورون للبحث عن حسونة. فى أول حديث صحفى لحسونة من على مقهى الروضة أعلن أنه يقوم بتدريبات سرية عنيفة للمنافسة على بطولة الجمهورية كما أنه مرشح للعب فى رومانيا. أخذت حسونة الجلالة. وعلى طريقة أبطال الملاكمة المحترفين. أعلن تحديه لبطل الجمهورية على اللقب. لم يكن حسونة نفسه يصدق أى شئ مما يحدث. فتونة وشهرة وعلاقات عامة. ظهرت صورة حسونة فى جميع الصفحات الرياضية فى الصحف.

وفى الوقت الذى رفض فيه رئيس اتحاد الملاكمة أن ينافس حسونة على لقب بطل الجمهورية لأنه غير مسجل بالاتحاد. تنافست اربعة نوادى مشهورة على التعاقد مع حسونة. تم حسم النزاع بعد أن اعلن نادى الشرطة أن حسونة مقيد بفريقه وأنه أحد أبطاله، كما أكد رئيس النادى التدريبات السرية التى يقوم بها حسونة بعد أن قال للصحافة فى جملة غامضة، أن حسونة مقيد لدينا ولكنه اختفى.

حكاية عامر وعبد الناصر مع حسونة، والتدريبات السرية واحتمال السفر للتدريب فى رومانيا. جعلت رجال المخابرات يعتبرون حسونة، أحد أسرار الأمن القومى. السرّية للغاية. وأنها على أعلى مستوى. توقف البحث تمامًا. واعتبرت جميع الاجهزة أنه لا يجوز الاقتراب من حسونة أو المساس به وبالتالى فإنه لا تجوز مراقبته.

لم يعرف أحد. غير شلة المقهى. أن أحد أهم هوايات حسونة هى مطاردة البنات والشغالات على السلم والتدقير للنساء فى الأوتوبيسات.

وكنت الوحيد الذى يعرف علاقته بأشجان التى تقطن فى عمارة الملك الصالح بالطابق الخامس. كان يصعد معها بالاسانسير دائمًا ويعلقه بالساعات.

بعد شهرته أصبح ضيفًا فى الحفلات والسهرات وبيوتات الهوانم.

أعلن مراد بطل الجمهورية فى الملاكمة قبوله التحدى. كما أعلن أنه على الرغم من أن حسونة قد تدرب تدريبًا سريًا فى رومانيا، ويقال أنه هزم بطل رومانيا إلا أنه سيمزقه.

ولكن الخبراء والنقاد أجمعوا على أن مراد كان فى حالة خوف وعصبية واضحة. والحقيقة أن مراد كان فى حالة انهيار نفسى شديد وأصابته حالة من الارق ظهرت فى الهالات السوداء تحت عينيه وتلعثمه المفاجئ فى الكلام.

إنتظمت الجماهير فى الاستاد القديم. وفى المقصورة جلس الوزراء وانتشر المصورون والصحفيون هنا وهناك. حضر كل سكان حىّ الروضة تقريبًا واحتلوا مدرجًا كاملاً.

ابن الروضة بطل مصر والعالم سيلعب اليوم، بالنسبة لحسونة الذى لم يلعب الرياضة يومًا فى حياته ولم يتدرب على الملاكمة كان الموضوع بسيطًا. مشوار خناقة يضرب فيها مراد علقة ويرجع ليجلس على المقهى، ويدور الحديث عن بطولته وقوته. المهم هو سمعته وشهرته فى الحىّ.

التقى حسونة مع الشلة على المقهى، قبل المباراة، ليركبوا التاكسى سويًا إلى الاستاد.

لم تكن هناك أية جهة قد قامت بأية ترتيبات لاستقبال حسونة أو التعامل معه. الجميع ينتظر ظهور حسونة مع طاقم خاص من المساعدين والمدربين وغالبًا جميعهم من رومانيا أو من رئاسة الجمهورية.

وقف التاكسى أمام باب الاستاد، واقنع حسونة مراقبى البوابة بصعوبة أنه حسونة البطل. حتى الشلة كانت تعتقد أن ذهاب حسونة معهم بالتاكسى هى مجرد أمور سرية. مؤكد أن حسونة يقوم بتدريبات سرية وهذه السرية هى أوامر من عبد الناصر أو المشير عامر.

لم يعرف حسونة إلى أى مكان فى الاستاد يتوجب عليه الذهاب. وقف تحت حلبة الملاكمة وسط هتافات الجماهير. أخذ يخلع القميص والبنطلون. قبل أن يصعد إليها جاءه مدير الأمن وهمس فى اذنه. مراد هذا بطل زائف من محاسيب الجيش. أخذ البطولة بقرار من رجلهم الكبير. لم يفهم حسونة اللمز والاشارات فى كلمات مدير الامن.

الجولة الأولى. مأخوذ حسونة بالاضواء وصياح الجماهير. انهالت عليه ضربات مراد. يتقافز حوله كالنحلة ويستخدم مهارات لا يعرفها حسونة.

شلة المقهى لم تملك الا احضار كوب عصير ليمون له فى الاستراحة. حسونة إياك أن تفضحنا. هتفت الشلة لإغاظة حسونة واستفزازه . حسونة النونة كوانونة ويا عينى عليه.

اغتاظ حسونة. قام وانقض على مراد، مجموعة ضربات متتالية شمال يمين. مستقيمة. سقط مراد بالضربة القاضية الفنية فى أول خمسة دقائق. شكله وحركاته ملاكم. ولكنه مصارع. أكدت معظم الاجهزة صلتها بحسونة ورعايتها له.

حاول جهاز المخابرات بكل السبل معرفة الكلمات التى همس بها مدير الامن فى اذن حسونة قبل صعوده إلى الحلبة. ظل البحث السرى مستمراً لمعرفة المكان الذى يتدرب فيه حسونة. تلقى حسونة عرضًا للتحدى فى رومانيا. بينما ظل حسونة جالسًا على المقهى فى إنتظار اتصال عبد الناصر أو المشير به.

زفت و عنبر ..



خرجتُ من مبنى سجن الخليفة في حراسة مشددة. أخذ عسكري الترحيلات علبة السجائر الأجنبية وعشرين جنيهاً لتقسيمها بين الحرس. بدلاً من إغلاق باب السيارة تماماً والإختناق داخل صندوقها المصفح، اكتفى بمواربة الباب لدخول بعض الضوء والهواء.

انطلقت السيارة في زحام المدينة.

أخذ الجندي السائق يشارك في ضوضاء المدينة الصاخبة. وظلت السيارة تطلق صفارتها دون توقف.

كان خط السير المفترض للسيارة أن تخرج من سجن الترحيلات بالخليفة للتوجه بي إلى مقر نيابة أمن الدولة

لإستكمال التحقيقات بضاحية مصر الجديدة. في الدقائق الأخيرة تعدل خط السير لعدم كفاية عربات نقل السجناء. وتلقت القوة الأمر باحضار شخصين آخرين من سجن طره بعد ضاحية المعادي.

كنت قبل أسبوعين أتحرك بين غرف المحققين لحضور التحقيقات والدفاع عن *عمال مصانع الحديد والصلب الذين أضربوا عن* العمل واعتصموا بالمصنع احتجاجاً على أوضاعهم المتدنية، كان مطلبهم زيادة الأجور وكوب من الحليب لحماية صدورهم من جهنم الحديد المنصهر وبرادته. اقتحمت قوات البوليس بالمدرعات والجنزرات المصنع. أطلقت النار كيفما اتفق على العمال وانقلب المصنع إلى ساحة حرب.

بعد أن أعمت عيونهم الغازات المسيلة للدموع، ألقي القبض على ثمانمائة عامل وقياداتهم.

كنت في انتظار مصطفى أمام غرفة المحقق. حين ظهر من طرف الممر القادم من السلم في مبنى النيابة، وجدته متكئاً على أكتاف الجنود وبالكاد يجرجر ساقيه على الأرض. مصطفى قائد العمال

المضـربين، صـهرت وجـهـه حرارة نار الحـديد. يقـف أمام الأفـران ممسكاً بـخطاف فولاذي يسـحب به عـجينة النار التي خـرجت تواً من الفرن إلى المجرى لتتحول فجأة إلى عِرق من الحديد الصلب. له كـتـفـان وذراعـان هائلان، ومـلامح صـارمـة صنعـتـهـا السـمـرة وإنكسـارات الخطوط عـلى وجـهـه. رغم ذلك هناك نظرة طفـوليـة حزينة تلحظها في عينيه.

لعبت الصدمات والأسلاك الكهربائية بأعصابه وتوازنه، تلذذ الضباط بتعذيبه، وانقضوا بالكهرباء على أعضاؤه الحساسة. لم يقـو مصطفى عـلى الرد على أسـئلة المحقق، ولـم أتحمل رؤيتـه على هذا الحال.

انطلقت في ثورة ألعن النظام والضباط والتعذيب والمحققين.

مع أول ضـوء النـهـار جاء الضبـاط والمحققون أخـذوني وأخذوا كتبي وأوراقي.

ظل صفير السيارة يعوي حتى بوابة طره، وظللت أسترق النظر إلى الطريق من الثقوب في جدار السيارة.

أصدر باب السيارة وهو ينفتح صريراً مزعجاً ودخل معه ضوء شديد. أُغلق الباب بإحكام. تبينت بعدها وجود شخصين أحدهما في العشرين من عمره والثاني أكبر بقليل ويرتدي كل منهما ملابس باكستانية بيضاء. الأكبر ذو لحية كثيفة وضخمة، بينما الأصغر ذو وجه طفولي ولحيته قصيرة ومضحكة بعض الشيء. بمجرد أن استقر الرجلان في الجلوس أخذ يحتضن كلا منهما الآخر. اندهشت من ذلك لأنهما في قيد واحد. تبينت بعد فترة أنهما لم يريا بعضهما منذ شهور فكلاهما في الحبس الانفرادي. تعارفنا وسألني الرجلان عن حكايتي، ثم جاء دورهما. عادت السيارة تعوي في الطريق ونحن نتقافز ونترجرج من المطبات وحفر الطريق.

قرر الأخوة في الجماعة أن على صفوت أن يتزوج. من جانبه طلب صفوت الإذن بأن يختار عروسه.

كانت هدى بشعرها الطويل المنساب في ضفائر على ظهرها تمتد اطافه لتلمس خصرها، والتى تسير على ساقين بأرداف ممتلئة مكورة، هي حلم المراهقة الأول والدائم لصفوت. لم تترك هدى مخيلة صفوت في نومه ويقظته.

وجه هدى لم يكن جميلاً مثل جسدها. رغم ذلك كان صفوت يرى شهوته في فمها، بشفتيها البضتين. طوال ثلاث سنوات في مجالس الأخوة وأثناء التدريبات لم يستطع صفوت التركيز فيما يقال. إذ تأخذه منهم هدى بأردافها وشفتيها.

هناك في مدخل حي أبو السعود قرب جامع عمرو، يقف المتنطعون على النواصي والمقاهي يلاحقون أردافها. لم تسلم هدى من بذاءة كلمات عمال الورش المنتشرة على الطريق. كانت دائماً هدفاً للسيارات المارة تقف لها وتدعوها للركوب. على الرغم من أن صفوت عشقها منذ الثانية عشر من عمره، وصرف بحور مراهقته عليها، إلا أنها لم تشعر به أبداً ولم تلتفت إليه يوماً.

تحايل صفوت بكل الصور ليظهر أمامها، لتأتي عيناها في عينيه. وقف بالساعات وبالأيام أمام مدرستها وبيتها، عند البقال، في الأوتوبيس. لكن ذلك لم يحدث أبداً. فالهداية من عندالله.

لكن صفوت في خطر. فالبنت بأوصافها غواية من الشيطان. ولابد من مراقبتها والتعرف عليها عن قرب.

شوهدت هدى بين حين وآخر تركب سيارة صغيرة حمراء من ماركة الفيات، وتختلي مع راكبها على كورنيش النيل. عرف

صفوت أنه حموده ميكانيكي السيارات والذي تقع ورشته قبالة جامع عمرو. إنها زوجة صفوت المقبلة، كيف ترتكب المعصية مع ابن الكافرة حمودة هذا.

إجتمع صفوت مع أبي العلاء، صاحب اللحية الضخمة، ولم يكن هناك مفر من أن يطلبا أن يأتيهما أحد أمراء الجماعة ليفتيهما فيما يفعلان.

من المطرية جاء خالد بن الوليد أميراً عليهما. جلس الثلاثة أمام بوابة إحدى المقابر الواقعة أسفل جبل المقطم. استمع الشيخ خالد لرواية صفوت وأبي العلاء. بعد أن أنصت طويلاً وامتلئت ملامح وجهه بكل علامات الصرامة والغضب. أصدر فتواه.

استدرج صفوت حموده لإصلاح سيارته المتعطلة بناحية جبل اسطبل عنتر. بجوار إحدى السيارات المهجورة في الجبل انتظر خالد وأبي العلاء. حموده الذي لم يخطر على باله ما يمكن أن يحدث، ظل يجري في الجبل ويصرخ. هاجت الكلاب في الجبل ولم يتوقف نباحها. لحق الأخوة به. انقض الشيخ خالد عليه. ضغط الحبل المضفر على رقبته وأخذ يسحب طرفه. اختنق حمودة ولكنه لم يمت. نظر ثلاثتهم إلى بعضهم، رفع أبو العلاء حجراً

كبيراً وظل يدق به على رأس حمودة حتى تهشم. أصابت صفوت لوثة وأخذ يجعر ويتقيأ.

في التحقيقات الأولية اعترف صفوت بكل التفاصيل. بينما تملص أبو العلاء وألقى بالجرم كله على الشيخ خالد. لم ينطق الشيخ خالد طوال التحقيقات بكلمة واحدة. في النهاية عند مواجهته بالاعترافات أنكر تماماً صلته بالقضية.

سألني صفوت وأبو العلاء النصيحة في إنكار الاعترافات أمام المحققين.

شعرت بالاختناق. خفت على رأسي أن ينفجر هربت بعيني إلى ثقب في صاج سقف السيارة. لعنت الترحيلة. اقتربت السيارة من ضاحية مصر الجديدة. قصر البارون تحفة معمارية رائعة وجمال فذ. انحرفت السيارة يساراً في شارع الثورة. ظهرت الكوربة. مبانيها العريقة تجمع بين الطراز الإسلامي والعمارة الأوروبية. تلك الأعمدة يعلوها تاج على شكل زهرة اللوتس الفرعونية. واجهات البيوت والطرقات تستقبلك في إحتفال أسطوري. طبقات من الحضارة والجمال. اختلطت فيها قيم مدينة أون الفرعونية مع روح مختار والبارون إمبان.

هدأت نفسي. وأخذت أسرح بعيني في جمال بنات مصر الجديدة.

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٥٧٠٠
٢٠٠٢/ ٩/٧



حكاية عامر وعبد الناصر مع حسونة، والتدريبات السرية واحتمال السفر للتدريب فى رومانيا، جعلت رجال المخابرات يعتبرون حسونة أحد أسرار الأمن القومى. السرية للغاية. وانها على أعلى مستوى. توقف البحث تماما. واعتبرت جميع الاجهزة أنه لا يجوز الاقتراب من حسونة أو المساس به وبالتالى فإنه لا تجوز مراقبته.

••••

لم تكن هناك أية جهة قد قامت بأية ترتيبات لاستقبال حسونة أو التعامل معه. الجميع ينتظر ظهور حسونة مع طاقم خاص من المساعدين والمدربين وغالبا جميعهم من رومانيا أو من رئاسة الجمهورية.



